نداء الهند

وحدة الهند و تكاملها (*)

بقلم: السيد مظفر حسين بونى

إننى إخترت "وحدة الهندو تكاملها" لتكون عنواناً لمحاضرتى حيث أننى أعرف الراحلة السيدة إنديرا غاندى معرفةً تامةً، و أستطيع أن أقو ل بأن شيئاً لم يكن يهمها أكثرمن التماسك القومى. و أضف إلى ذلك أن أى موضوع آخر لايهمنا أكثر من الحفاظ على وحدة البلاد و تكاملها و ذلك نظراً للأخطار من الداخل و الخارج

كانت السيدة إنديرا غاندى رمزاً حقيقياً للتكامل الوطنى و مكافحة و مناضلة من أجل وحدة البلاد و تكاملها إن التكامل الوطنى هو أثمن و أعز تراث للنضال الوطنى ضد الحكم الإستعمارى و كانت السيدة غاندى نفسها ثمرة للحركة الوطنية الهندية، بل في الحقيقة إحدى أحسن ثمارها كان جد السيدة إنديرا غاندى المبجل و والدها المؤقر أول رئيس وزرائنا زبدتين لثقافة الهند المركبة من عناصر متنوعة فان التقاليد الدمثة الرحبة و الشاملة لأسرة نهرو قد تجسدت فى السيدة إنديرا مع الإمتزاج بالتأثيرات المتنورة الواعية لرحلاتها الواسعة إلى الخارج و دراستها فى أكسفورد. و قد شكلت النظرة العالمية الإنسانية و المهذبة بدرجة بالغة هذه الشخصية التى أرشدت هذا الشعب العظيم لمدة حوالى عقدين ، و بسبب إتصافها

---

* - محاصرة من سلسلة المحاصرات التى بدأتها جامعة كيرالا بجنوب الهند إحياء لذكرى الراحلة السيدة انديرا غاندى-

nidaulhind.blogspot.in

بحصافة سياسية آمنت بأهمية الوحـــدة الوطنيـــة و تضامـــن البلاد و عرفت قيمتها فلم تدخر وسعا لتعزيزهـــا و تعميقهـــا. إنها عاشت و ماتت من أجل وحدة الهند. و إنها بتضحية حياتها إنضمت إلى صفوف العظماء الأبطال فى العالم الذين سوف يعتبرون دائما منارة فى العاصفة

و فى مستهل الحديث أريد أن أقر بأننى لاأدعى بثقافة عالية حيث أننى لم أقـم بدراسة عميقة فى الموضـوع على طريقـــة علمائنـــا و باحثينا. و لكنى كإدارى على وجه العموم و بوصفى سكرتيرا بوزارة الداخلية المركزية بوجه خاص كنت على صلة بعملية التكامل الوطنى فى إطار السياسة التـى وضعتها السيدة إنديرا غاندى. و على هذا أستطيع أن أستند إلى تجربتى فى إبراز بعض النواحى الخطيرة لهذا الموضوع.

أنا مغتبط كثيراً بهذه الفرصة المتاحة لي لإلقاء خطاب أمامك. سيداتى و سادتى المحترمين المنتمين إلى أرض شنكر أتشاريا الذى أنا أعتبره أعظم مفكر أنجبته الهند. إن ولاية كيرالا معروفة بثقافتها الغنية الممتازة كما هو الظاهر من رقصتها المعروفـــة بـ "*كتا كالـــى* و *مو هينى أتام* " و روحها المحافظة السمحاء و تمسكها بالقيم القديمة العليا للحياة و مستواها العالى فى التعليم و إنجازاتها الباهرة في المجالات المختلفة. إن شعب كيرالا معروف فى جميع أنحاء الهند بصناعته و مهنته. ففى الماضى و ربما اليوم أيضا كان كل المستشفيات فى الهند تقريباً تخدمها ممرضات الرحمة من فتيات كيرالا اللائى يكرسن جهودهن لخدمة المرضى و المتألمين، و فوق كل شئ فان كيرالا هى إحدى الولايات فى البلاد التى تتعايش فيها ثلاثة أديان كبرى فى العالم بطريقة سلميـة بروح من التسا مح و التفاهم المتبادل أو بكلمة أخرى هى الولاية الوحيدة التى تبرز فيها حقيقة التكامـــل الوطنـــى. و نظراً لهذا ليس هناك مكان أحسن من جامعة كيرالا لهذه المحاضرات الرائدة. فلو إستطعنا أن نحول كل ولاياتنا بما يجعلها مطابقة لهذا

nidaulhind.blogspot.in

النموذج لتحققت الوحدة الوطنية على أساس متين.

وحدة الهند و تكاملها :

إن موضوع الوحدة الوطنية التى أخترته لكى أتحدث فيه أمامكم لموضوع هام جدا فى بلادنا اليوم. فإن وضعنا الراهن مع ما يوجد فيه من تغايرات و تناقضات، و نزاعات و إشتباكات، و تنافرات و خلافات يذكرنـا قـول شارل ديكنس (Charles Dickens) بتفرع ثنائى الشعب فى كتابه الشهيـر "حكاية مدينتين" إذ يقول :

"إنه كان أحسن وقت، إنه كان أسوأ وقت، إنه كان عصر الحكمة ، إنه كان عصر الغباوة، إنه كان ربيع الأمل ، إنه كان شتاء اليأس ، كان كل شئ أمامنا منورا، إنه كان فصل الظلام، ربيع الأمل ، إنه كان شتاء القنوط، كان كل شيء أمامنا، و لم يكن أمامنا شيء ، كلنا كنا نذهب رأسا إلى الجنة، نحن كلنا نذهب رأسا إلى طريق آخر".

الوضع الراهن :

تعتبر مسألة التكامل الوطنى إحدى المسائل المعقدة و العويصة الآن. فإن القوى المجزئة و الإنفصاليـة آخـذة فى النمو فـى حوالينا و تشكل خطراً لوحدة البلاد و تكاملهـا. و أحرزت العصبيـة الإقليمية و اللغوية هيمنة على بعض المناطق. و نظرية "إبن التراب" التى تذاع على الملأ فى مختلف الأنحاء تقضى على روح الوطنية و تولد إقليمية محدودة معاكسة للمصالح الوطنية وتشعر الأقليات و الفئات الضعيفة بطريقة متزايدة بأنها في غيرمأمن فى الظروف السائدة في مجتمعنا. إن الأعمال الوحشية البربرية ضد المنبوذين و القبائل المتخلفة و كذلك المظاهرات المعادية لحجز الوظائف الحكومية بولاية غجرات و الإرهاب فى البنجاب والإضطرابات فى أسام و العصيان المستمر فى المنطقة الشمالية الشرقية كلها تولد قلقا إجتماعياً و سياسياً، الأمر الذى له أثر فى البنية السياسية و تدفعنا نحو الوضع المهلك. و في جنوب

nidaulhind.blogspot.in

الهندنشأ إستياء شديد ضـد اللغـة الهنديـــة على أساس أنها توفر للمناطق المتكلمة بالهندية فرصا للتعيين فى الوظائف الحكومية أكثر من السكان المتكلمين بلغة غير الهندية.

و كذلك شوهت سلسلة التصادمات الطائفيـــة سمعة البـــلاد، و كثيرا ما شوهد فى تصرفاتنا السياسية بأن الأحزاب تجعل الإنتساب الدينى قاعدة محددة للولاء السياسى. فلم تتعرض البلاد أبدا مثلما تتعرض الآن منذ الإستقلال للتهديد الخطير لسلامتها. بالأمس كان المعتدى هو الإستعمار، و لكن أليوم هى القوى المهد دة الممزقـــة التى لو سمح لها بأن تثوربكامل قوتها، فسوف تدمر البلاد.

و المشكلة التى علينا أن نجاهد في حلها بكل إخلاص وجد هى أنه كيف يمكن تغذية مشاعر الوحدة و التضامن و حثّ كل طبقات الشعب عليها و كيف نستطيع أن نولد الشعور عند الناس في بلادنا بأنهم ينتمون إلى أمة واحدة و إلى بلد واحد و كيف يمكن أن ينمو روح الوحدة و التماسك فيمابينهم مثل اليابانيين الـذين أكبر ممتلكاتهم هى الروح الجماعية التى تحثهم على خدمة شعبهم.

الخلفية التاريخية :

أن تاريخ الهند محبوك بخيوط تاريخية عالمية بطريقة لايمكن فكها، فأولا عن طريـــق الآريين ثم المسلميـــن و أخيـــراً البريطانييـــن. و السمة البارزة الكبرىٰ للسيناريو التاريخى الهندى عبر العصور هى تنوعها اللامتناهى. فالهند بلد واسع و مختلط بعناصـــر متنوعـــة كيلومتر٧٥١٦,٥ كيلومتر و خط ساحلى طوله ١٥٠٠ولها حدود طولها . متوجة بأطول جبال العالم تخترقها أنهار جبارة عديدة متدفقة بسرعة هائلة و يسكنها حوالى ٧٠٠ مليون شخص و يتحدثون ٢٥٠ لغة ولهجة ٤,٠٠٠(١٦لغة كبرىٰ) و يعتنقون عقائد مختلفة ويسكنون في حوالى مدينة و خمسمائة ألف قرية تقريبا مع تقاليد و عادات و أساليب شتى و ينعمون بثروة نباتيـــة و حيوانيـــة لاحصـــرلهـــا، و لعلها تقدم تنوعات مادية و إجتماعية و دينية و لغوية هائلة منقطعة النظير

nidaulhind.blogspot.in

فـــي العالـــم كلـــه. إذن بقيت البلاد "متحفا للأجناس و السلالات البشرية تجذب الناس بطريقـــة كامنـــة لدراســـة انثروبولوجية. ولكنها بسبب تمزقها بحسود قبلية و تشاجرات عائلات حاكمة قد ظلت لمدة قرون مقسمة إلى إمارات صغيرة و عانت بطريقـة مؤلمة من عـــدم الوحـدة. و كل المساعى الهادفة لإلحامها في بلد متحد قد اخفقت فكان ميكستنيز قد سمع فى القرن الرابع عن ١١٨مملكة. و لكن لفترات قليلة فقط إستطاعت أسرة حاكمة قويـــة مثـل الموريين و الامبراطور المغولى الشهير أكبر إقامة وحدة سياسية لا بأس بها.

و مرتبكين بالتنوعات في المشهد الإجتماعى الهندى، ذهب الأوروبيون إلى رفض الوحدة الهندية فقالوا بأنها مجرد و هم من نسيج الخيال. ولكن يقول الشاعر الفيلسوف محمد إقبال في هذه الأبيات:

کچھ بات ہے کہ ہستی مٹتی نہیں ہماری
برسـوں رہا ہے دشمـــن دور زماں ہمـــارا

یونان و مصر و روما سب مٹ گئے جہاں سے
باقـــی مگر ہـــے ابتک نام و نشان ہمـــارا

(إن روحنا حية ، رغم أن الطالع ظل أسوأ عدو لنا. لقد ذهبت اليونان و مصر، و روما، كلها مع الريح و لكننا مازلنا أحياء كقوة خلاقة)

هكذا ظلت الوحـــدة الأساسيـــة العميقة متينة و قوية إلـى أبعد حدود و ذلك رغم التنوعـــات المتشعبـــة الطبيعيـــة و الإجتماعيـــة و الجغرافية و السياسية و قد عبرت إنديرا غاندى عن بعض هذه الأفكار بطريقة مناسبة على النحو التالى :

"إن الشعب مثل الفسيفساء. عمل أو فن، أنه يأخذ عناصر مختلفة و تكوينات عدة و ألوانا شتى ليعطى إنطباعاً كاملاً للقوة و الجمال. إن الشعب الهندى مركب من عناصر غنية متنوعـــة مـــن الناس و الأفـراد و الأغذيـــة و الثقافـات و اللغات و المعتقدات، إلاّ أن هذا التنوع منحصر ضمن

nidaulhind.blogspot.in

كيفية غير ملموسة من الطابع الهندى. و إن تراثنا خليط من تيارات عديدة، كبيرة و صغيرة، و انصبت كلها في أزمنة مختلفة في نهر الهند المتدفق إلى الأمام. و في نفس الوقت تجعل هذه الأجزاء المختلفة الكل. فإن الإنكار أو عدم الإهتمام بأى واحد منها مهما كان صغيراً أو حديثاً ، يكون معناه إضعاف الهند. على هذا توفر هذه الوحدة العميقة الجذور مفتاحا لفهم الفكرة و الثقافة الهندية و خطاً إرشاديا للمستقبل."

كما توجد فكرة الوحدة السياسية فى الهند في شكل جوهرى منذ عصور موغلة في القدم. و يمكننا مشاهدة المثل الأعلى لسيادة الوحدة على البلاد بأسرها فى العديد من الكتابات الهندوسية. فقد كتب جوزيف كننجهام (Joseph Cuningham) و هو يصف مخاوف السيخ عن الإعتداء البريطانى فى عام ١٨٤٥م -

"تعتبر هندوستان من كابول إلى وادى أراكان و جزيرة سيلان بلدا واحدا و السيطرة عليها تربط ذهنيا بين أفراد الشعب مع فكرة سائدة لعاهل واحد أو جنس واحد" [كما يصرح هربيرت رسليه (Herbert Risley) و هو باحث شهير فى الأجناس و السلالات البشرية و يبدى بصيرة ملحوظة فى فهم الشعب الهندى] "فى الواقع هناك طابع هندى و شخصية هندية عامة و ليس بإمكاننا أن نبددها في أجزائها الأساسية".

إن وحدة الطابع الهندى التى توجد في صميمها قدتعززت و تدعمت بشكل أقوى خلال فترة كفاحنا القومى الذى نفخ روح الحماسة فى ملايين الناس فى هذه البلاد المنتمين إلى معتقدات و فئات و مناطق مختلفة للتقدم إلى الأمام و تحرير وطنهم من أغلال الحكم الأجنبى.

الثقافة المركبة:

الثقافة الهندية مركبة من عناصر مختلفة. فإن كلمة COMPOSIT

nidaulhind.blogspot.in

(المركب) تستخدم في هندسة معمارية و الرياضيـات و علم النباتـات و لها مفاهيم فنية أيضا. و فى سياق حديثنا إنها كلمة أو إصطلاح مركب يعنى وضع أجزاء منفردة أو عناصر عـديـدة فى وحدة كاملة. إن ما دة الخرسانة المسلحة المصنوعة من مادتين أو أكثر من المواد المختلفة مفهومة لدينا بسهولة فى هذا السياق. فإن المصطلح يشير إلى تركيب عضوى لأجزاء عديدة اندمجت في كل. وفي سياق الثقافة الهندية، سوف تعنى كلمة COMPOSIT الاتجاه الواسع العام الذى انبثق تدريجيا من إمتزاج مجمـوعـات و فئات مختلفـة نتيجة دفع نابع من التغييرات فى الحياة الإجتما عية و الإ قتصاديـة و السياسية. إن تاريخ الثقافـة المركبة سجل لرد فعلنا للظروف المتغير ة للحياة في صور أفكار و شعور مشتركة. و الثقافة المركبة عملية متواصلة غير منتهية و إنها تجربة، و ليست تصورا تجريديا. وأنها عادة، و ليست طريقة خاصة في الوقوف أو الجلوس، و أنها ليست عقيدة دينية جوهرية و إنما هى تصرف.

تشير الثقافة المركبة في المفهوم الهندى إلى أسلوب إنتقالى بصفة دائمة. أنها تمثل خليطا نابضا بالحياة من خيوط ثقافية متعددة تستوعب الأحسن من كل واحد منـا. فيصـف فيفيكانند رام موهان رائـى بأنـه أول شخص نفخ روحا جديدة فى الهند، و إنه إستطاع أن يكسب هذه المكانة بفضل إمتزاج ثلاثة مؤثرات ممتازة فى شخصيته - الحكم القيدية و الاسلام و الفكرة الأوروبية العقلية و إلى هذا النوع الذى ظهر خلال عصر النهضة الهندية بإستيعاب الخيوط الثقافية المتنوعة تنتمى بعض أحسن عقول البلاد من أمثال غاندى. و تاغـور، و جواهرلال نهرو ، و سى راجا غوبال آشاريـا و مولانا أبو الكلام آزاد و السيدة سروجنى نائيدو.

و يشير العالـم السياسـى الهنـدى الشهيـر البروفسـور رشيد الدين خان إلى أن الثقافـة الهنديـة لو درست جيدا، فسوف تظهر أنها تتميز بثلاثـة إرتباطات ممتـازة بوضوح . الإستمراريـة،

nidaulhind.blogspot.in

و الإستيعاب، و الجمع بين العناصر المختلفة (١) و هى تربط تركيبة المجتمع الهندى.

و قد أبدت الراحلة السيدة إنديرا غاندى ملاحظتها بطريقة وجيزة فقالت:

" من عادة الناس التفكير بأن التنوع مضر فينبغى الإلتجاء إلى فرض التماثل تحقيقا للوحدة و القوة. و لكننا نحن في الهند وجدنا أن التنوع مصدرللقوة، و إن إستمرارية الحضارة الهندية لمدة ثلاثين قرنا مدينة لتنوعها و مقدرتها فى إمتصاص عناصر جديدة و التفاضى عن الخلافات".

و من ناحية غناء الثقافة، تعتبر الفترة التى تتراوح بين القرن الثانى عشر و السادس عشر إحدى الفترات الأكثر خطورة عندما إندمجت ثلاث ثقافات ممتازة و هى العربية و الإيرانية و الهندية نتيجة للتفا عل بين المحلية و الخارجية و ولدت ملتقى حوّل في نهاية المطاف الأنهارالجبارة للثقافة المركبة إلى تيار رائع لحياة قومية (٢).

إننى لا أقصد هنا مسح تاريخ ثقافة الهند. فقد ساهم في ذلك آنند جوسوامى و الدكتورراداها كريشنان مساهمة جليلة. و ليس علينا إلاّ أن نرجع إلى أعمالهم للحصول على المعلومات المتعلقة بالموضوع. و لكن أريد أن اؤكد بصورة خاصة على أن الثقافة المركبة للهند مزيج بارع لتيارات متعددة الأنواع لتراثنا العرقى و الإجتماعى. و الفلسفى و الطبيعى. و إن تأثيرات متعددة إمتزجت بعضها مع بعض لخلق وحدة كاملة منفردة. و نحن نجد فى خيوط الثقافة الهندية المركبة دوراً فعالاً للبصيرة الفيدية و فلسفة جيتا و السلسلة الصوفية و دماثة اللغة الأردوية التى نشأت كلغة مزيجة من الثقافات (٣) و العلوم و التكنولوجيا الغربية و اللبرالية و القيم التى نبعت من تجربتنا خلال حركة الإستقلال. و كذلك فان الهملايا و الجنج

nidaulhind.blogspot.in

و التاج محل و الخيال و الكثاكلى رموز بليغة لهذه الثقافة المركبة .

و قد تغنى رجال الدين والنساك الهندوس و الصوفية بأناشيد وحدة اللّه و الإنسان و نشروا رسالة البشرية التى سمت فوق الطبقة و الفئـة. فقد إستوعب حملة مشعل حركة الإخلاص والتفانـى. و هم الشيـخ معين الدين الجشتـى ، و فريـد، و نظام الـدين أوليـاء، و كبير، و جرونانك، و دادو، و توكارام، و شتنيا، و تلسى داس و ميرا أطيب العناصر من كل الأديان. و كانت لهم علاقة مباشرة مع الجماهير فاستلهموا القـوة الروحانيـة منها. و حاول كبيـر و نانك إحداث التقارب بين المسلمين و الهندوس. فـى الواقع لم يكن تنظيم نانك لتعايش المجتمع مختلفا من أنظمة الصوفياء فى تكاياهم. و كانت الحركـة الصوفيـة ملائمـة للإنصهـار فى بوتقـة الروح الهندوسيـة و رموزها الثقافية. فكان خسرو يدعو نفسه هندوستانيا و كان فخوراً على ذلك.

و يكتب البروفسور محمد مجيب أنه بفضل خسرو أصبح التقليد غنيا و عالميا و رائعا فجأة. و أنه أعتبر لمدة قرون بناءاً للثقافة الهندية الإسلامية. و إن حركة البهاكتى التى نشأت فى جنوب الهند قد نشرت نفس الرسالة للتسامح و الإئتلاف.

كان الإمبراطور المغولى "أكبر" السياسى اللبرالى المحنك يدرك أخطار النزاع الدينى فحاول تنمية التضامن القومى بالدعوة إلى ديانته المختارة الجامعة و قاوم النزعات الطائفية الكبرى . و كان يعتقد إعتقادا جازما في أخوة الإنسان. فقد اعتمد مبـدأ السلام مـع الجميـع و أجرى مناقشات دينية مع العلماء المسلمين كما رحب برجال الدين من الديانـة المجوسيـة و اليانية و العلماء الهندوس، و كذلك الكهنة البرتغاليين. و قام بمراجعة أديان مختلفـة بما دفعه إلى بلورة دينه الجديـد الذى سماه "*الدين الإلهى*" و لكن لايوجد فى الـدين الإلهى كتاب مقدس و كذلك ليس له كاهن و لاطريقة خاصة للعبادة. فكان تعليمـه الأساسى تعميـم العلاقـة بين اللّه و البشر.

nidaulhind.blogspot.in

يرى محمد إقبال أنه لو أثرت تعاليم "كبير" و الدين الإلهى للإمبراطور "أكبر" في الجماهير لنشأت أمة هندية متحدة. ففى خطابه المعروف في الإجتماع السنوى للرابطة الإسلامية لجميع الهنـــد فـــى إله آباد فى ٢٩ ديسمبر عام ١٩٣٠ دعا محمد إقبال إلى إنشاء منطقة تتمتع بالحكم الذاتى فى البنجاب و الأقاليم الشمالية الغربية الواقعة على الحدود حيث يقطنها المسلمون فى الأغلبية. فقال محمد إقبال:

يقول "رينان" (RENAN) (٤) إن الإنسان ليس عبيدًا لعنصره و لا لدينـــه و لا لمجرى الأنهار و لا لإتجاه سلسلـــة الجبـــال. و إنما الجزء الأكبر من البشر و هو عبارة عن سلامة العقـــل و حرارة القلب يخلق وعياً اخلاقيا، و هذا الوعى الأخلاقى هو الذى نسميه "الأمة" و مثل هذا التشكيل ممكن جـــداً رغم أنه يتطلب عملية طويلة شاقة لاعادة صياغة الانســـان و تزويده بجهاز عاطفى جديد. و إن هـــذا التشكيـــل لكان قد أصبح حقيقة واقعـــــة فى الهنـــد لو استولت تعاليم كبير و العقيدة الإلهيـــة "لأكبر" على فكر الجماهير في هذه البلاد. على أى حال، تثبت التجارب أن الوحدات الطائفية العديدة و الوحدات الدينية المختلفة فى الهند لم تبد أى ميل لصهر سماتها المنفردة فى كلٍّ أكبر. فكل مجموعة حريصة على كيانها الجماعى. و إن تشكيل نوع من الوعى الأخلاقى الذى يمثل جوهر الأمة عند رينان يطالب بثمن ليس شعب الهند مستعدا لدفعه. على هذاينبغى أن تنشد وحدة الأمة الهندية لا فى الأشياء السلبية و إنما فى الإنسجام المتبادل و تعاون الكثرة الكثيرة من الناس."

قام أكبر بازالة العوائق مثل "الجزية" وضريبة زيارة الأماكن المقدسة وإتخذ مبادرة لعقدالزواج بين الهندوس و المسلمين. (إن المبانى الرئيسية فى عهد أكبر - الديوان العام و الديوان الخاص و المسجد الجامع و قصر الشورى والباب العالى - كلها تحمل شهادة على إندماج

nidaulhind.blogspot.in

فنى للتعمير الهندى الفارسى) و تدل الكتب الهندوسية المقدسة مثل الرامايانا و المهابهاراتا و السنغاسن بتيسا و البهكواتا بورانا التى ترجمت إلى الفارسية فى عهده على ملتقى ذا مغزى لنهرين من الثقافات. إنه بنى معبداً فى كشمير و نقش على جدرانه الكلمات التالية تحذيرا للمتعصبين لدياناتهم.

"إن من يريد أن يدمر المعبد بدافع من النفاق، عليه أن يدمر أولا مكان عبادته. فلو كنا نتبع ما يمليه علينا الضمير، يجب علينا أن نحتمل التعايش مع كل الناس، و لكن لو كنا ننظر إلى المظاهر الخارجية فنجد كل شيء جديراً بالتدمير"

إن روح التسامح التى تتبلور فى هذا النص، هى أصداء لرسومات أشوكا الشهيرة عن التسامح الدينى على الصخرات الإثنتى عشرة.

كما إنتهج جهانكير سياسة و الده الجامعة و الأسلوب الهندى الفارسى فى رسم اللوحات خلال عهده و استمر هذا التقليد خلال حكم شاهجهان. فقد حاول إبنه الأكبر دارا شكوه تشرب أحسن تقاليد الثقافة الهندية. فكتابه "مجمع البحرين" مجموعة للمراسلات الخيالية بين علماء الكون الهندوس و المتصوفين و معتقداتهم و ممارساتهم. فكل هذه المنجزات فى ميدان الثقافة خلال عهد المغول قد أصبحت تراثا مستقلاً لثقافتنا العلمانية المركبة و حياتنا القومية.

إن الخطر الكامن فى انتقاء أفضل العناصر حسب رؤية أكبر أصبح واضحا عندما تعرض داراشكوه للتعذيب. و لكن رغم هذه العوائق فى العهد المغولى فقد كان هناك امتزاج للحضارات الهندوسية و الإسلامية بما أسفر عن إزدهار الفنون الجميلة، و الثقافة و الفلسفة. و نتيجة لهذا الإمتزاج الثقافى قدنمت حركة الإصلاح الإجتماعى بما كان له أثر ملموس فى الحياة الهندية.

هناك بعض العوامل التى تعرقل نمو الروح القومية فى الهند

nidaulhind.blogspot.in

و منها أن المواطنين يلجأون إلى بعض أنواع الإحيائية، الأمر الذى يديم التوترات الفوضوية و الغرور الباطل. إن الإحيائية محاولة خاصة و جهود جماعية يبذلها الناس لإنعاش الدين بإثارة العواطف و إشاعة أساليب فكرية تمتد جذورها إلى التقاليد الدينية القديمة. فقد كان للإحيائية خلال كفاحنا القومى دور إنعاشى محدود و لكن فى منظور عريض تأزمت إتجاهات إحيائية بفعل المصالح المغرضة و هى التى تشجع ضيق الفكر و تنال من روح الوحدة القومية. فقد حذر نهرو من الدور التخريبى للإحيائية فى رسالته إلى الدكتور سيد محمود. (٥)

"لا يمكن لبلد أو شعب و هو عبيد للتعسف و العقلية التعسفية أن يتقدم. و مما يحزننا أن بلادنا و شعبنا أصبح متعسفا و ضيق الفكر للغاية. إن سخاء القلب شئ جيد ولكن الذى نحتاج إليه ليس إنفجارا عاطفيا للسخاء و إنما هو التسامح المعقول الرزين. الديانة بشكلها الممارس فى الهند قد صار عجوزا بالنسبة لنا و إنها لم تكسر ظهورنا فقط و إنما أوقفت التطور و قتلت كل إصالة الفكر والذهن تقريبا. فمثل السندباد البحرى، علينا أن نتخلص من هذا الثقل الفظيع قبل أن نتوق إلى التنفس جيدا أو نعمل شيئا مفيدا"

الأمـــة :

تحتاج كلمة "الأمة" إلى الشرح فى مجال دراستنا للتكامل و الوحدة القومية. فإن القومية موقف ذهنى و شعور جماعى ذاتى. أنها حالة ذهنية و نزعة أو عمل شعورى. و كمايؤكد هانس كوهن فإنها تجعل مجموعة من الأفراد يشعرون بأنهم واحد. وأهم مكون فى القومية أو الأمة هو العاطفة للوحدة السيكولوجية التى تربط الناس معا. ففى الآونة الأخيرة أكد المؤرخون على الطابع السيكولوجى للقومية. إلاّ أنه لابدّ من الإعتراف بأن هناك أوضاعا موضوعية تغذى روح القومية مثل

nidaulhind.blogspot.in

اللغـة و الأرض و التراث المشتـرك من الماضى مع ذكرياتها و ديانتها و منشاتها المشتركـة و الجنس المشترك و الكيان السياسى و التقاليد و ما إلى ذلك.

و يعرّف جون إستوارت ميل (John Stuart Mill) الحكومة الممثلة فى مقالته القيمة بأنه: (٦)

"من الممكن القول بان جزءا من البشر يشكل قومية لو كانوا متحدين فيما بينهم بعواطف مشتركة لا توجد بينهم و بين أفراد آخرين تجعلهم يتعاونون بعضهم بعضا برغبة أكثر مقارنة مع الناس الآخرين فى أن يعيشوا فى ظل حكومة واحدة و بأن تكون هذه الحكومة مكونة منهم جميعاً أو من بعضهم بصفة خاصة. و يمكن أن يتولد هذا الشعور عن القومية من أسباب عديدة. فأحيانا هو من تاثير الهوية أو الجنس و العنصر. وتساهم في ذلك المشاركة فى اللغة و المشاركة فى الدين بطريقة أكبر. و الحدود الجغرافية هى أيضا من أسبابها. و لكن الأقوى من الجميع هو تماثل الخلفيات السياسية و الإنتماء إلى تاريخ قومى و مايترتب عليه من شعور بالاعتزاز و الذلة و الفرح و الأسف المشترك المرتبط بنفس الحوادث فى الماضى."

إستعملت كلمة " الأمة" أصلا فى القرن الثالث عشر بمعنى مجموعة عنصرية و لا بمعنى تجمع منظم سياسيا و يوجد هناك بعض التداخل فى المعنيين الذى ظل مستمرا. غير أنه منذ القرن السابع عشر و بعد ذلك اكتسبت كلمة "*أمة*" معنى الشعب بأسره فى بلد. و ظهرت كلمة "*القومية*" فى القرن الثامن عشر و التداخل بين تجمع عنصرى و حركة سياسية دام فى هذا المفهوم أيضاً.

إن مفهوم كلمة "الأمة" معقد و نحن لانستطيع أن نفهمه إلاّ بالأخذ فى الإعتبار بأنه تطور على مدى فترات مختلفة من التاريخ فى مراحل متميزة و نحن نلاحظ فى هذا المفهوم تغيرات هامة لما ننتقل

nidaulhind.blogspot.in

من عهد أو بلد إلى الآخر.

كانت المرحلة الأولى لبروز الأمم التاريخية هى بروز القوميات فقد برز شعور القومية و تطور فى منطقة معينة من العالم عندما خلق نمو و إمتداد القوى المادية أوضاعا لتفاعل مستمر بين مجموعات الشعب الساكنة فى مناطق صغيرة و جعل حياتها معتمدة بعضها على بعض. و الطاقات الجديدة الناتجة من نمو التجارة و الصناعة و المستوى المتزايد للرفاهية فى فئة كبيرة من السكان عملت دائما على إضعاف ولاءات طبقية ضيقة للناس مبنية على الفئة و القبيلة أو الهيئة و وسعت أفاقهم الذهنية و مداهم التعاطفى. و باندماج لهجات لغوية مختلفة فى لغة واحدة مشتركة. و وعى تام بتراث ثقافى مشترك إنحدر من التاريخ و إنتفاضة مشتركة للمزيد من الحرية و المعرفة و الرفاهية الأكبر حدث التحام متزايد بين جماهير الشعب بأسره فى المنطقة و بحيث اكتسبوا هوية متجانسة و كان ذلك بداية للشعور بالقومية.

فى الواقع كانت هذه ظاهرة ذات عنصر تقدمى تمثل فى مساعدة أهالى المنطقة ليرتفعوا فوق ولاءاتهم الضيقة للطبقة والقبيلة و الدين. و مع تجربة مشتركة على مدى أجيال فى هذه المرحلة من الإنطلاق السريع نحو الحرية و المعرفة، يتطورالشعوربالقومية و يغرس الناس شعوراعميقا بالإعتزاز بهويتهم و الإرتباط بأرضهم و ثقافتهم. و عندما تصبح هذه القومية كيانا سياسيا مستقلا و تبلور جهازا إداريا و سياسيا خاصاً بها أو على الأقل تكون حريصة على تحقيق مكانة كيان سياسى مستقل فحينئذ تتحول إلى أمة. و لكن التاريخ لايعطى لكل قومية فرصة لتنمو إلى أمة. فبعض القوميات القوية فى مرحلة تفوقها تقهر و تضطهد الناس من قوميات أخرى و تضع عراقيل شديدة فى سبيل نموها وتطورها. و في بعض الأحيان تستعبد قوة إستعمارية من منطقة نائية قوميات المناطق الأخرى و تجبرها على المشاركة فى الإستعباد المصيرى و تولد فيها تطلعا مشتركا للتحرر

nidaulhind.blogspot.in

من الحكم الإستعمارى و يؤدى شعور الوحدة الناشئة هنا إلى بروز روح القومية.

لقد حدث فى التاريخ الحديث أن بإنقسام بولندا اكتسبت مشكلة القومية طابعا مستعصى الحل عندما تعرضت دولة كبرىٰ للقمع من جراء تصرفات غريبة بكامل الاستخفاف بمشاعـــر الجماهيـر. و طبقا لما ذكره اللورد اكتـون (Lord Acton) حوّل الإنقسام حقا كامنا إلى تطلع و عاطفةً إلى دعوى سياسى ! و انتعشت نظرية القومية إلى حد أبعد بسبب رد فعل ضد نابليون الذى وجه ضرباتـــه إلى روسيـــا و إيطاليا و المانيا، و اسبانيا، و بعد مؤتمر فيينا نشأ نزاع بين الإستبدادية فى جانب و القومية في جانب آخر. و ساد رأى عام بأن الدولة و الأمة يجب أن تتصاحبا معا و يكتب اكتون (Acton) أن نظرية القومية مرتبطة بنظرية الديمقراطية لسيادة الإراداة العامة. فالوحدة ضرورية من أجل ارادة جماعية و الإستقلال مطلوب لتأكيدها.

و تقدم نشأة القوميـــة فـــى أمريكا مثالا جيـــدا لالتحام روح قومية فقد أسفرت الحرب الأمريكية من أجل الإستقلال عن إقامة حكومة مستقلة ذات سيادة فى المستعمرات الثلاث عشرة البريطانية في القارة الأمريكية الشمالية. و لم يكن بين سكان في هذه الأقاليم تجانس حقيقـى و لا لغة مشتركة و لا ديانة مشتركة و لا تقليد تاريخى و لا بنيـــة سياسيـــة أو مؤسسية واحدة حتى لم تكن لها حدود محدّدة جيدا فكانت لغتهم مستوردة من انجلترا. و نتيجة لإنفصال المستعمرات من أوروبا و ظهور رد فعل على ظروف جديدة و تطور مؤسستها ذات الحكم الذاتى و الطابع التمثيلى نشأ طابع أمريكى متميز حتى نهاية القرن السابع عشر. و لما حاول البريطانيون قمع شعوب المستعمرات المتحمسة بروح القومية، فثارت تلك الشعوب فى كفاح عنيف و كان من الطبيعى أن هذا الكفاح توّج بالحرب الأمريكية من أجل الإستقلال.

و فى إنجلترا إنفجرت الروح القومية خلال عهد اليزابيت. فبعد

nidaulhind.blogspot.in

إنهزام أسبانيا انتبه شعب انجلترا فجأة إلى عظمته. ففى سلسلة الكتب المعروفة (Faerie Queen) لصاحبها اسبنسر (Spenser) التى صدرت فى تلك الفترة قد جرى تمجيد الزابيت إبتهاجا بنصرها. وخاطبت الزابيت رجال جيشها فى تلبورى بهذه الكلمات المثيرة "شعبى الحبيب".

"لقـد تصرفت مع نفسى دائما من منطلق ثقتى بأننى برعاية اللّه، قد وضعت طاقتى الأعلـــى و سلامتـــى فى قلوب رعاياى المخلصين و مشاعرهم الودية، لـذلك ها أنا حضرت بينكم، مصممة كما ترون في وسط المعركة و نيرانها لكى أحي أو أموت بينكم جيمعا، و لأضحى من أجل إلهى و مملكتى و شعبى، بكرامتى و دمائى، حتى فى التراب. أننى أعلم أن لى جسماً نحيفاً لإمرأة ضعيفة و لكن لى قلبا و بطنا لملكة، بل ملكة انجلترا أيضاً.

أنا بنفسى سأحمل أسلحـــة، أنا بنفســـى أكون جنرالـــة لكـــم و قاضيـــة و مكافئة لكل مزية فيكم جميعاً فى الميدان. و قد سبق لى أن علمت شجاعتكم التى صرتم بها مستحقيـن للجوائز و التيجان.

بهذه الكلمات أحدثت اليزابيت كل تغيير في انجلترا التى كانت تثور بالنهضة القوميـة.

و هنا تأتى إلى ذهنى الكلمات العاطفية و التحذيرية التى أدلت بها السيدة إنديرا غاندى قبل يوم واحد من إغتيالها.

> *"حتى و لو مت فى سبيل خـدمة الشعب، أكون فخورة على ذلك و إننى على يقين بأن كل قطرة من دمى، سوف تساهم في نهضـة هذا الشعب و تجعله قويا و ديناميا".*

إن نشأة القومية في الهندلهابعض الصفات الفريدة التى لاينبغى أن تختفى عن الأنظار. فشعب ذو قوميات عديدة منقسم على الأسس الطائفية و الدينية و اللغوية في بلدٍ واسع الأرجاء مع أنواع كثيرةٍ من النباتات والحيواناتٍ تعوقها و سائل غير كافية من النقل و الإتصالات و تعيش حياة منعزلة، وقف صفاً واحداً في النضال من أجل حرية

nidaulhind.blogspot.in

الهند. والمؤتمر القومى الهندى الذى تأسس عام ١٨٨٥م بهذا الإسم الذى يتضمن كلمة "القومى" أصبح ذريعة لهذه التطلعات القومية للسكان غير المتحدين. و إن الناس الساكنين فى أنحاء البلاد المعتنقين عقائد مختلفة و المتكلمين بلغات متنوعة و اللابسين ملابس مختلفة و الممثلين أيدولوجيات و فئات شتى قد إجتمعوا في المدن الواقعة فى أماكن مختلفة من البلاد لدعم المؤتمر و الكفاح من أجل برنامجه و على توالى الأيام أضافوا إمكانيات أكثر فأكثر في قوميتنا المركبة.

قد أوضحت أبحاث تاريخية فى الآونة الأخيرة أن المؤتمر كان حقا تتويجا لمحاولات بذلت لجمع الناس من أجزاء مختلفة من البلاد لإعداد برنامج سياسى لتأكيد حقوقهم. و هكذا كانت القومية الهندية إنتاج التفاعل بين قوى موضوعية و غير موضوعية و لعوامل تبلورت تدريجيا فى عملية تاريخية خلال فترة كفاحنا من أجل الإستقلال. فخلال الحكم البريطانى كان الشعب الهندى قدتجمع فعلا تحت دولة مركزية، و كانت لها شبكة نامية للإتصالات بطريقة تدريجية. و خلقت التجربة المشتركة للإستعباد تحت أجهزة الدولة، وعيابأن حقوقهم السياسية و الإجتماعية تعارض من قبل سلطة أجنبية لمصلحتها هى. فقد أدى ذلك بعد فترة، إلى إيقاظ روحهم القومية. و بدأ الشعب كفاحه في تلك الفترة ليس كهندوس أو مسلمين أو مسيحيين أو سيخ أو من فئات أخرى، بل بصفة مواطنين هنود. فهم نادوا إلى إستعمال مصنوعات يدوية وتكلموا في لغات محلية و لبسوا ملابس مشتركة. و ضمّوا إلى داخل صفوف كفاحهم الناس من الطبقات العليا والسفلى و الأغنياء و الفقراء و الدكاترة و المحامين و المدرسين و العمال والفلاّحين. إن حادثة "جليان والاباغ" خير شاهد و وصف حىّ شديد الوضوح لروحهم الملتهبة و المتحمسة للقومية التى بزغت خلال كفاحنا من أجل الإستقلال. و كذلك حركة التعاون أيضا مثال آخر للتآخى بين الهنود و المسلمين و السيخ و المسيحين. و رغم نمو القوى الطائفية، حافظ الكفاح القومى على مستواه المعين إلى أن بزغت هند جديدة

nidaulhind.blogspot.in

و جعلت "موعدها مع القدر" عند منتصف الليلة في الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٧م.

الانسجام أو التجانس الثقافي يمكن أن يخدم كأساس متين للتكامل القومي. و لكن الإندماج الثقافي أو الشعور القومي المشترك الذي هو نتيجة للثقافة و التجربة المشتركة، عملية بطئية. فالخبراء الذين درسوا نمو القومية أشاروا إلى أن عاملا كامنا حقيقياً لتنشيط عملية التكامل القومي هو حماية مصالح الشعب و هذه الحماية تنمي ولاءهم للبلاد. فالناس يبدون ولاءهم لمؤسسات تحميهم، و الولاء السياسي قد أعتبر طوال التاريخ بأنه شيء يعطى بطريقة متبادلة مقابل حماية المصالح و قد تم تجريب هذا التفسير إستقرائية. لذا فإننا لايمكننا أن نعزز الشعور القومي ما لم نخلق ظروفاً ملائمة لنموها.

يقول كارى ديوتش (Kari Deutsch) الخبير المعروف في دراسته للقوميات بأنه هو و شركاؤه قد وجدوا حين دراستهم لقضايا الإندماج الناجح لفئات متنوعة في شعب واحدٍ، أنه من الضروري لكل إقليم أو فئة من السكان المشتركين الحصول على منافع أو فرص قيمة (٧) فمن أجل التكامل القومي، يعتبر عامل المصلحة المشتركة هذه و خاصة الرفاهية الإقتصادية للناس، على جانب كبير من الأهمية. فهناك علاقة متبادلة وثيقة بين المصلحة المشتركة و الروح الديمقراطية.

و هناك عوامل غير مادية أخرى تولد شعورا قوميا، و لكن لو تحمي الدولة مصالح مجموعات غير متكافئة ثقافيا بين سكانها فحينئذ فقط أنها سوف تتمكن من التمتع بالولاء القومي لمثل هذه المجموعات و جلبها إلى التيار الرئيسي لتلعب دورها البناء في إعادة بناء المجتمع.

في التاريخ قد اعتمدت طريقتان من أجل إحلال الوحدة القومية في بلد مهدد بقوى التخريب و التجزئة. إحداهما طريقة بسمارك (Bismarck) الذي استخدم السيف بحنكتة البارعة في إدارة

nidaulhind.blogspot.in

الحكم لإقامة ملكية عسكرية قوية فى بروسيا. و الأخرى طريقة كافور (Cvour) الذى وحد إيطاليا بصورة عامة، بحركة شعبية مبنية على سلسلـــة من إستفتـــاءات ثم عززهـــــا و حافظ عليهـــا غريبالدى (Garibaldi) و مازينى (Mazzini) و أوضحت فترة ما بعد بسمارك بأن بسمارك قام بتحول خاطئ اضطرت ألمانيا بسببه إلى أن تدفع ثمنا باهظا. و لحسن الحظ لم تعتمـــد الهند طريقـــة بسمارك و إنما إختارت نظاما برلمانيا للحكم مبنيا على تصويت البالغين. فالتحدى أمامنا اليوم هو مواصلة عمليـــة توحيـــد البلاد بأسلـــوب ديمقراطى.

الدستور:

يعتبر دستورنا رمزا حيا لتكاملنا و وحدتنا القومية. فالمواطنية الفردية و القضاء المستقل، و الحقوق الأساسية و المبادئى الإرشاديـــة كلها تعزز الوحدة القومية وتحميها. و كذلك فان جهاز التخطيط على المستوى المركزى يعزز عملية التنمية من خلال التعاون و الانسجام فى أعمال الولايات المختلفة. كما توفر الخدمات المركزيـــة حلقـــة تكاملية حيوية. و يتضمن الدستور المثل العليا للعلمانيـــة و الحريـــة و المساواة ١٥، ١٦التى تمثل أساساً وطيداً لتكاملنا القومى. فتحرم المادتان التمييز على أساس الطبقة و الدين و النسل و الجنس أو أماكن بأنه لايكون هناك أى تمييز فـى التعيين فى١٦الولادة. و تؤكد المادة ٢٥، ٢٦الوظائف الحكومية على أى من الأسس المذكورة. و تكفل المادتان الحقوق فى إعتنقاق ديانة و ممارستها و نشرها، و الحرية لتنظيم أمور دينية.

و توضح المواد المذكورة أعلاه أن الدستور يشجع التسامح الدينى وتحرم الموقف التمييزى الأمر الذى من شأنه أن يعمل كضمانات كافية فى ملأ المناصب ذات المسئوليات الحكومية اعتمادا على مبادئ الإستحقاق. فإن دستورنا ميثاق للعلمانية، و الحرية و الوحدة القومية. و أنه من المؤسف حقا بأن هذه المشاعر النبيلة المتجسدة في الدستور

nidaulhind.blogspot.in

و التى كان من المفروض أن توفر دافعا للتكامل فى الحياة القومية، ليست معروفة لدى أغلبية سكان البلاد. لذلك من المهم جدا أن تشرح و توضح مبادئ دستورنا في مدارسنا و جامعاتنا على الأقل للجيل الناشئ حتى يتمكنوا من تبنى وجهة نظر علمانية، و قومية و صحية و إيجابية في معاملاتهم و أن يكونوا مواطنين جديرين بهذه الأمة العظيمة.

العلمانية:

من أجل تنمية التكامل الوطني إنه من الضرورى أن تغرس روح العلمانية فى الناس. فكلمة العلمانية مشتقة من كلمة لاتينية معناها الجيل أو العصر و يتعلق بشئون الدنيا. فمجالها دنيوى، و هو ليس مقدسا و لا رهبانيا. و لكنها لاتعنى أيدولوجية مضادة للدين. إن مفهوم العلمانية الذى يعنى مفهوماً ضد الدين كما هو حاليا في الغرب لا يمكن أن ينطبق على الهند التى هى مجتمع متعدد الأديان. ففى الهند يمكن أن يكون رجل دينيا بقدرما هو يريد و لكن دينه يكون همه هو فقط. و الأهم فى هذا الصدد هو أنه فى نظام علمانى لا صلة للدولة بالدين.

و هكذا يمكن تفسير العلمانية بمعنى التسامح الدينى على نمط النظرية التى عمل من أجلها الامبراطور أكبر المغولى. فكان من المفروض أن تعطى هذه النظرية شعوراً من الأمن و الكرامة لأتباع كل المعتقدات. لأنها تتجسد فى الروح التى قال عنها الشاعر محمد إقبال :

مذهب نهيں سيكهاتا آپس ميں بير ركهنا
هندى هيں هم وطن هے هندوستاں همارا

(الدين لا يعلمنا العداوة فيما بيننا. فنحن هنود و وطننا هى الهند)

و لكن العلمانية لاتعنى تعدد الطائفية أو تشجيع أو رعاية الدولة لفئات دينية مختلفة.

قد شدّدت التقاليد الهندوسية القديمة على التسامح الدينى و الإسلام فى شكله القديم قد وقف إلى جانب السعة فى أفق الفكر

nidaulhind.blogspot.in

و الأخـوة بين البشر. و المسيحية تنشرحب الإنسان و كذلك أبدى الجرونانك ملاحظته السرية أثر بلوغه إلى المعرفة الحقيقية: "*ليس هناك هندوسى و لا مسلم*" إنه بتجربته الشخصية لم ير تمييزاً بين الرجـل و الرجـل. على هذا فإن جوهر كل الأديان الكبرى في الهند يعارض العصبية الطائفية و المذهبية التى تضعف وحدتنا القوميـة. و لا تتنازع العلمانية مع هذا الجوهر الصحيح للدين. الدين أمر يخص الفرد و ينبغى الا تنتهك الدولة و المجتمع حرمته. إننا توارثنا تقاليد التعايش السلمى و التسامح الدينى. كما قالت الراحلة السيدة إنديرا غاندى:

"*العلمانية و الديمقراطيـة دعامتـان توأمـان لدولتنـا و مجتمعنا. فمنذ زمن موغل فى القدم تعتنق أغلبية كبرى من شعبنا فكـرة العلمانيـة و التسامح الدينـى. و السلام و الإنسانية. و من المفهوم أن يشعـر الناس بإساءة بالغـة و إضطـراب عقلى عند إنحراف يحـدث هنا و هناك و لدى فئات صغيرة فى المجتمع بما يثير أو يستغل عواطف طائفية أو ينمى التنافر و التوتر و العنف.*"

على أى حال، هناك تطورات مزعجة مثل الإحيائية، و التمسك بالأصولية و الرجعية. فعلينا أن نقاوم كل هذه النزعات الفاسدة بتعبئة الرأى العام و تعليم الجماهير و غرس التسامـح الديني فيهـم و الوعى لتراثنا القومـى المشترك و المثل العليـا و القيم المشتـرك. و علينا أن نتأكد أيضا من أن يشعر أتباع كل المعتقـدات الدينيـة بالأمـن و الحرية فى إعتناق و ممارسة شعائر أديانهم. إلاّ أن المهمة الرئيسية المتعلقة بتنمية روح العلمانيـة الصحيحـة لن تتحقق لو تركناها للدولة فقط. فلاتكفى بأن تكون الدولة علمانية بل يجب أن تكون الطبقة العامة من الشعب أيضاً مفعمة بنفس الروح لأنه يكون شيئا عديم الجدوى لو كانت الدولة علمانية و الناس الذين يعيشون فى البلاد يحتضنون مسلكا مغايرا للعلمانية.

nidaulhind.blogspot.in

هنـاك شكوك كبيرة فى بعض الدوائر فـــى هل تكون طريقة رام و رحيم (التوافق بين جوهر الدين الهندوسى و الإسلامى) فعالا فى كبح الطائفية حيث أن هذه الطريقة تتطلب ثقة أساسية عند فئات مختلفة. الأمر الذى من سوء الحظ لايتوفر لدينا. إن مثل هذه النظرية مبنية على الإعتقاد بأن المشكلة الطائفية هى مشكلة التنمية الإقتصادية غير المتساوية بين الفئات. فجوهر المشكلة هو الإقتصاد، على هذا فان معالجة رام و رحيم بمثابة غسل الغنغرينا (الشر المميت) بماء نبات ذات رائحة طيبة.

و من أجل إعتاق عامة الناس من مستنقع الطائفية، لابد من نشر أفكار متنورة. على أى حال هذا بوحده لا يكفى طالما يعيش الناس فى فقر مدقع و العوز الشديد. فإن الناس الفقراء يتعرضون سريعاً لتأثيرات طائفية. و لقد شوهد كثيرا أن الناس المتخلفين إقتصاديا توجد فيهم نزعة للجنوح إلى عادات و تصرفات غير منطقية لكى يخففوا من وطأتهم و يجدوا مخرجا سهلا منها. و كذلك يميلون فى مثل هذه الأوضاع إلى الإيمان بالقضاء والقدر الذى هو علامة للقصور الذاتى. و لكونهم سذجا بطبيعتهم ينجرون بسهولة إلى شعارات خادعة أخاذه و يشرعون في طلب راحة التخلص من العقدة النفسية عند احتدام العواطف الطائفيـــة. ففى مجتمع يوجـــد فيه أديان متعـــددة و حيث تعانى فئات كبيرة منها أقليات دينية من حرمان إقتصادي تصبح مسألة إزالة الفقر من أجل تحسين صحة المجتمع أمرا في غاية الخطورة. فالأهم هو التأكد من أن تجد الأقليات حصتها المناسبة من الفوائد الإقتصادية.

التكامل القومى :

علينا أن نتذكر أن التكامل القومى عملية مستمرة و ليس شيئا يمكن تحقيقه فوراً ثم أنه ليس نهاية بذاته و إنما هو برنامج عمل لغرض بناء أمة قوية و عاملة بطريقة منسجمة. و لما نتذكر ذلك نفهم بأن

nidaulhind.blogspot.in

التكامل الوطنى لايعنى أبداً و بأى حال من الأحوال، إندماجا كاملاً لفئات و مجموعات مختلفة في كل وحدانى. هكذا أنه لايعنى اخضاع أقليات أو فئات ضعيفة للإذعان و الخضوع. و في جانب آخر يجب تضييق فجوة الخلافات لا عن طريق إمتصاصهم و إنما بخلق ظروف التفاهم و الود، و الحرية و التسامح لكى يشتركوا في تيار الحياة العامة إشتراكا فعا لا بدون أن يشعروا بأن إنفراديتهم و طابعهم المتميز تتعرض لأى ضرر فكان نهرو على بصيرة من النواحى الدقيقة لهذه المشكلة المعقدة حينما قال:

"نحن شعب واحد بالطبع و لكن المحاولة لإخضاع الثقافة بطريقة واحدة يكون معناها التنافر و إنها سوف تضع نهاية لتنوع الهند و غناهاو تحدد الروح الخلاقة و السعادة فى حياة شعبنا و أمامنا أمثلة لبلدان مختلفة مثل السويسرا، و كندا و بلجيكا حيث تحافظ كل مجموعة على إستقلالها الذاتى الثقافي، و لكن مع ذلك إنها بمنزلة سنّ لازم للعجلة العاملة"

لقد برز من بوتقة التاريخ شيء نادر فى الهند. و هو أنه توجد فى بلادنا أفكار عن الوطنية و ممارستها و التى لايمكن أن تنحصر فى فئة و دين و لغة واحدة. فإننى أرى أن مثل هذه الأمة التى تتكون من مجموعة عرقية و لغوية واحدة فقط هى أقل درجة بدون ريب من أمة متكونة من ثقافة مركبة تتشارك فيها فئات و مجموعات لغوية مختلفة مع مصادر ثقافية متنوعة. و إن كل هذه حاكت نسيج الحياة المتمدنة التى لاتوجد بسهولة فى أى مكان في العالم. فلو إختفى هذا التنوع فإن ثقافتنا لاتضعف فقط بل قد يظهر خطر الإستبداد و الفاشية في بلادنا. و يوفر التركيب الإنسجامى للفئات المختلفة داخل الدولة الواحدة ضمانا لكبح هذه القوى المنحرفة.

و عندما تعتبر أمة شيئا غير الحرية هدفا أقصى لها فإنها تكتسب طابع الإستبداد. إذن تقدم حرية الفكر و التعبير و الشعور

nidaulhind.blogspot.in

بالإشتراك لدى الناس فى شئون الدولة كبحا لإتجاه الإستبداد. و توجد فى دولة أمة مثل هذا الكبح اللازم على صلاحيات أجـهزة الـدولة.

الإقليمية:

تنسجم فكرة الإقليمية في نظام فيدرالى مـع روحنا الثقافية وسط التنوع و وسعة بلادنا. فالولاء لإقليم في نظام سيا سى تنافسى صحيح. و تتفاعل القومية و الإقليمية بعضها مع بعض. و ينسجم هذا التفاعل مع روح دستورنا. و هذا يعنى تنسيقات متبادلة بين تطلعات الولاية و مطالب المركز. و المبدأ وراء الإقليمية هو خلق وحدات إدارية على أسس لغوية. و لكن الإقليمية الآن تعنى قوى طاردة من المركز مع نزعة ضد القوميـة. ثم تشاركت معهـا نزعـة إقليميـة و لغوية و انفصالية. و توجد لتنمية نزعة إقليمية أربعة أسباب أساسية (الف) جعل التاريخ محليا (ب) تكامل الأراضى للولايات. (ج) إعادة تنظيم الولايات على أساس اللغة و الطبيعة المتفاوتة للتنمية الإقليمية.

و إحدى صفات الإقليمية المقلقة هى فكرة (ابن التراب) التى إكتسبت حاليا السيطرة على ذهن الشعب فى البلاد و تقطع جذور التكامل الوطنى. و طبقا للتاثير المميت لهذه الفكرة إن الأفضلية تعطى أحيانا لترشيحات محلية، على الأشخاص الذين ينتمون إلى خارج المنطقة الأمر الذى يعتبر انتهاكا صارخا لمبدأ الإستحقاق. و قد جاء فى وثيقة لحكومة الهند صدرت مؤخراً تحت عنوان "تحدى التعليم - منظور للسياسـة" إن الجامعات و الكليات بالجملة بدأت تخضع لنفوذ الطائفية و الاقليمية و الاعتبارات المحلية. (٨)

و هذا التطور مضر جداً فإنـه يعرقل تبادلات فكرية و ذهنية بين فئات السكان المنتمين إلى مناطق مختلفـة، الأمر الذى يعتبر ضروريا جـدا لأى عمل ابتكارى. هناك عاملان لظهور نظرية (ابن التراب) هما التخلف في النمو، و مخاوف عامة فى أذهان الشباب المتعلمين الجدد المتنافسين للوظائف بشأن التخلف عن المسيرة. فقد

nidaulhind.blogspot.in

كتب الخبيرالشهير فى علم النفس دونكان بى فوريستور أن بعض المجموعات العرقية تسير نحو الأمام بسرعة أكبر بالنسبة للآخرين بسبب التفاوت في التنمية (٩) فالتنمية غير المتكافئة بين المناطق في الأوضاع الإقتصادية تخلق ظاهرة مؤسفة للإقليمية الفرعية. فهناك عوز مستمر للعدالة الإجتماعية و المساواة الإقتصادية. فإن عشر فى المئة من الناس من الطبقة العليا يملكون معظم الثروات و الموارد. و طبقا لما ذكره بنك الإحتياط الهندى تساوى ثروات واحد فى المئة من الطبقة العليا فى المناطق الريفية، ستين فى المئة من الطبقات السفلى. و ثلاثة في المئة من الطبقات العليا يملك أكثر من ربع الأراضى. و يملك ستون فى المئة من الطبقات السفلى أقل من عشر فى المئة من الأراضى نفس الشيء يصدق على المناطق الحضرية أيضاً حيث توجد عدم المساواة فى الثروة بصورة أكثر وضوحا. و ذلك فضلا عن اللاتوازن الإقليمى الصارخ فى التنمية. فما لم يتم الإسراع في عملية التنمية الإجتماعية ـ الإقتصادية الشاملة من أجل إزالة عدم التكافؤ واللاتوازنات فان التوترات الإجتماعية الناتجة عنها سوف تستمر مما سيزيد فى إتجاهات مخربة و يضعف تركيبة الأمة.

و من سوء الحظ تبدى الولايات اللغوية الآن ولاءات ضيقة و فوضوية و اتجاهات مسببة للخلاف و الشقاق و هى تعمل كقوى معاكسة لتكامل البلاد و تؤدى إلى تفشى العنف و تقدم دعاوٍ و دعاوٍ مضادة للأقاليم و المجالس و الأراضى و القنوات و حتى المدن المختصة بفئة. و الآن تثار شكوك فيما إذا كان تشكيل الولايات اللغوية خطوة في إتجاه صحيح حقا. فإن الخبراء الذين درسوا هذه المسألة يعتقدون بأن السبب الأساسى لمثل هذا النمو الإقليمى غير الصحى هو عدم التوازن بين الولايات و المركز و هم يعتقدون أن التوازن الإقليمى شرط مسبق للوحدة و تكامل البلاد. و يؤمنون إيمانا جازما بأنه يجب أن يكون من مهمة زعمائناالبيوروقراطيين و المخططين تخفيف هذا اللاتوازن حيث أن المشكلة الأساسية هى الإقتصادية. و لكن اذا ما

nidaulhind.blogspot.in

إستمرت الروح الإقليمية و صارت جزءا لفكرة الناس، فإنها حتما تغذى إتجاهات إنفصالية عندهم مثيرة المزيد من الإستياء.

الطائفية :

الطائفية قوة سائدة أخرى فى مجتمعنا فهى تسبب التوترات عن طريق أعمال سياسية. و إن النزاعات الطبقية الآن شائعة. و كذلك لم يتم إزالة و صمة الفوارق الطبقيته تماما فإن المنبوذين لايزالون يتعرضون للتمييز فى المجالات الإجتماعية و الإقتصادية حتى أن الأعمال الوحشية ضد الأفراد المنبوذين مستديمة. و قد أدت سياسة حجز الوظائف لأعضاء الطائفة المنبوذة و القبائل المتخلفة فى التعليم و الوظائف الحكومية إلى تصعيد الإستياء. ففى ولاية غجرات بدأت المظاهرات ضد حجز الوظائف منذ عهد قريب تأخذ أبعادا مفزعة و علاوة على ذلك نهضت الفئات المتخلفة تطالب بتسهيلات و إمتيازات مماثلة فى التعليم و الوظائف. و كل ذلك سوف يؤدى إلى أضعاف الأمة. لذلك حان الوقت للتوصل إلى بعض الإجماع في المسألة التى طال النقاش فيها، أى فى مسألة حجز المقاعد فى المنشآت التعليمية و الوظائف الحكومية. فتؤيد مدرسة فكرية بأنه ينبغى أن يكون التخلف الإقتصادى وحده أساسا للحجز و لمثل هذه الإمتيازات. إلاّ أننى أرى شخصيا أن يستمر المنبوذون و القبائل المتخلفة فى نيل تسهيلات خاصة في التعليم و الوظائف حتى تبلغ إلى مستوى معينة للتقدم حيث لا تؤدى المساواة فى الفرص و المنافسة الحرة إلى إنكار المنافع الإقتصادية و الإجتماعية لهم.

القبلية:

بعد إستقلالنا جاء التحدى الأول لوحدة بلادنا من جانب القبائل الشمالية الشرقية. و القبلية التى تتميز عن الطائفية تعمل لتخليد هويتها التى تقوم على الولاءات الضيقة. فقد انتهجت بريطانيا سياسة "حماية إستثنائية" للقبائل. و الإستياء الإقليمى المتصاعد فى المناطق القبلية يرجع إلى (الف) أثر التعليم أو ما يسميه فيرير إلوين

nidaulhind.blogspot.in

بـ"نزعة الصفـة القبلية (ب)" التنمية المتفاوتة و (ج) الإستغلال الإقتصادى، و خاصة للغابات التى يعتبرونها رجال القبائل منزلا محبوبا لهم و وسيلة لكسب العيش. و تستحوذ على أذهان القبائل مخاوف شديدة عن فقدان هويتهم المتميزة التى يتعصبون لها. و بينما هم يحتفظون بانعزالهم يرفضون بأن يشاركوا في أى نظام مشترك فالمهم في هذا الصدد هو عدم السماح لهذه القبائل بأن يشعروا بأنهم ليسوا إلاّ الأجانب و أنهم ليسوا جزءا لايتجزأ للوطن.

و هنا أريد أن الفت الإنتباه إلى تجربتى فى الولايات الشمالية ـ الشرقية حيث كنت حاكما من أغسطس ١٩٨١ إلى يونيو ١٩٨٤. أصبح المجتمع القبلى في منى فور فى حالة الإنشقاق عندما اعتنق أهالى الوادى المعروفين بـ"الميتيين"، الهندوسية تحت نفوذ الكاهن الهندوسى الكبير ((Chaitanya Mahaprabhu) فى القرن الخامس عشر الميلادى. هم يشكلون الأغلبية لسكان الولاية و عددهم حوالى مليون نسمة، بينما عدد القبائليين على الأتلال يبلغ حوالى أربعمائة ألف نسمة. والميتيون (سكان الـوادى) فيشنيون و أتباع فرقة كريشنا. فهم هندوس مخلصون لدينهم إلى حد أن العجائز من الرجال و النساء يسافرون طوال الطريق من منى فور إلى ماثورا ليموتوا فى أرض الإلـه كريشنـا. و لكن مع ذلك لم تستطع الهندوسية أن تجلبهم إلـى التيار القومى. و فوق ذلك، و بعكس الإعتقاد السائد بأن التحديث و التعليم يكسر جدران الإنعزال قد أصبح الوضع أكثر سوءا. و كنتيجة لسياسة الحجز، إن الأولاد و البنات الذين يعتبرون أدنى درجة أو منزلة من الميتيين قد أحرزوا التقدم و يجلبون الآن منافـع من التعليـم العالـى و الفنـى و حجز الوظائف. فعدد ملحوظ من بناتهم و أولادهم يتولون الوظائف فى الحكومة المركزية. و هم أيضا إنضموا إلى خدمات فنية مثل الطب و الهندسة و غيرها. و قد خلق هذا شعورا بخيبة الأمل لدى الشباب الميتيين الذين يحسون بأنهم لم يكسبو شيئا بإعتناقهم الهندوسية. لذلك هناك حركة خاصة عند شعب الوادى للتخلـى عن الهندوسيـة و العودة إلى ديانتهم السناماهية القديمة. فتوجد فى كل

nidaulhind.blogspot.in

بيت ميتى تماثيل إلاهين. واحد للإله كريشنا و الثانى للإله سناماهى. وحتى أن معبدا سناماهيا قد بنى حاليا فى منطقة منى فور و نتيجة ذلك فان منى فور الآن توجد تحت سيطرة التمرد. كما توجد لدى سكانها كراهية ضد الناس من خارج الولاية. و هـم يطلقون عليهم لقب الأجانب أو المايانج .(MAYANG).

و شىء آخر مثير للإنتباه هـو ما يتعلق بناغالنـدا حيث تنتاب أذهان رجالها هواجس تحولهم إلى الأقلية بسبب تدفق الناس من خارج الولاية. فكان البريطانيون على درجة كافية من البصيرة عندما لمسوا الخطر فى سياسة الباب المفتوح. ففرضوا فى ١٨٧٣م نظاما لإصدار إذن للدخول بالنسبة للغرباء. و علاوة على ذلك لم يكن مسموحا لأى غريب بأن يشترى أو يمتلك أملاكا فـي ناغالنـدا، و نفس الشىء كان معمولا به فى معظم الولايات الشمالية الشرقية. و لكن على الرغم من كل هذه القيود الصارمـة المفروضة على دخول الغرباء، تقول الأرقام الإحصائية قصة مختلفة. ففى حين كان عددالسكان فى ناغالندا فى عام ١٩٧١م حوالى خمسمائة ألف نسمة، قد ارتفع فى مدة عقد إلى حوالى سبعمائة ألف نسمة في ١٩٨١م. بديهى، أن هذه الزيادة لا ترجع إلى تكاثر النسل مافوق العادة فقط و إنما تعكس تدفق عدد ملحوظ من الغرباء.

و علاوة على ذلك، ظهر منظر مقلق فى تريفورا حيث تغيرت الخريطة الإحصائية للسكان تماما. فالقبليون الذين كانوا فى الأغلبية قبل ١٩٤٧م، قد إنخفضوا إلى أقلية ضئيلة (حوالى ٢٧/ من مجموع السكان) نتيجة تدفق اللاجئين من البنغال الشرقية أنذاك و بنغلاديش الآن إلـى الولايـة. فبناء على ذلك حمل القبائليون الأسلحة لإسترجاع أراضيهم و تأكيد تفوقهم مرة أخرى. و كذلك أزمة آسام أيضا ترجع إلى فقدان الهوية بسبب التدفق المستمر للأجانب و نفس الوضع قد يبرز فى ميغالايا أيضا.

و في أجزاء أخرى من الهند أيضا يعيش القبليون فى مناطق جبلية منعزلة و نائية متعذرة الوصول للغايـة. و هم يعانون من

nidaulhind.blogspot.in

الأمية و الفقر و المرض بطريقة مؤسفة. فقد شوهد إنفجار سخطهم المتأجج فى أجزاء مختلفة مـن البلاد مثلا فى تلنغانا فى الخمسينـــات و نكسلبارى فى الستينات و أعمال العنف المستمرة لجناح اليسار المتطرف فى القطاعات الجبلية. و من حسن الحظ، كان زعماؤنا على درجة كافية من الحكمة عندما أعـــدوا برامج و مشاريع و نفذوهـا لأجل تحسين أوضاعهم الإجتماعية الإقتصادية. و مالم نضمن التنمية الإقتصادية و العدالة الإجتماعيـــة و المساواة و المشاركة فى العمليات السياسية و نحافظ على هويتهم الأصلية، فهم قديضطرون إلى إتخـاذ و سائل العنف من أجل الحصول على حقوقهم. إن الخطوا ت لإحلال السلام و تحقيق التقدم و الرفاهية فـى المناطق القبلية ينبغى أن تشمل إصلاحات كثيرة منها تنمية الحراجة العلمية و تحديث الزراعة و تمديد الرى و تسهيلات الصحـة العامة و التعليم و تنشيط الجهاز الإدارى و الإشتراك الفعال للناس القبليين فى صنع القرارات. و فى نفس الوقت ينبغى توعيتهم بضـرورة الحفاظ على بنيتهـم و بالتالى صيانة التوازن البيئى. و هذا شىء أساسى جدا لبقاءهم بالذات. كما ينبغى إتخاذ طريقة لينة فى المعاملة مع هـذه المجموعـــات العرقيـــة و القبائل و الفئات التى تتصرف بسبب خيبة الأمل و عـدم الإرتياح بطريقة اللاّعقلانية وتوجه ضربـة للوحـدة الوطنية. و لما تصبح هذه إلاّ عقلانية متمادية فى القسوة و تشكل خطرا للأمن فحينئذٍ من الضرورى إتخاذ تدابير صارمـة. وعلينا أن نبـذل قصارى جهودنا لتوفير فرصة للتعبير السياسى لمجـموعات عرقية و إقليمية عديدة داخل إطار الدستور و إحترام لولاءاتهم الإقليمية الفرعية إلى حد ممكن. إن هذا سيساعد فى تحقيق توافق و أتزان متين. و عندئذ فقط تبرز هذه المجموعات القبلية و العرقية كقوة متينة لإعادة بنـاء المجتمع الهندى.

العصبية اللسانية:

تعتبر اللغة إحدى القوى الأكثر قوة لبناء الأمة. و لكن في

nidaulhind.blogspot.in

مجتمع متعدد القوميات قد تكون العصبية اللسانية إحدى أكبر العوائق الكبيرة للوحدة القومية. و اللغة قضية حساسة يمكن اثارة العواطف حولها بسهولة.

أما السياسة التعليمية فهناك إتفاق عام بين الخبراء بأن لغة الأم ينبغى أن تكون ذريعة للتعليم فى المدارس و الجامعات بموجب توصية لجنة التعليم عام ٦٥- ١٩٦٤م. و فى هذا الشأن يوجد إتفاق تام واسع النطاق. على أى حال تنشأ المشاكل فى المناطق غير المتحدثة بالهندية حول مكانة اللغة الهندية التى هى لغة الرابطة. و تكسب هذه المسألة وضعاً خاصاً في طول البلاد. و هنا يمكن أن نتذكر قول الباندیت نهرو بأن "لغات البلاد كلها لغات قومية و الهندية وحدها وسيلة لربطنا جميعا معا" و الحل الذى جرى تقديمه حاليا لحل المشكلة هو اعتماد مشروع ثلاث لغات. إلاّ أن إحدى المشاكل التى لمسناها من خلال تجربة هذا المشروع هى أن دراسة ثلاث لغات فى مرحلة المدارس شىء متعب بالنسبة للتلاميذ فلولا هذا المشروع لأنفقوا أوقاتهم و طاقاتهم فى إحراز إتقان أكبر للمواد الجوهرية بدلاً من اللغات التى لاتخدم إلاّ كذريعة ممكنة للإتصال فى الحياة المقبلة. غير أن هناك بلادا فيها لغات عديدة مثل بلجيكا. و السويسرا و يوغوسلافيا. ففيها ثلاث أو أربع لغات. على هذا الأساس يبدو مشروع ثلاث لغات مشروعا سليما.

و لما كانت الهند بلاداً متعددة اللغات مع تواجد لغات إقليمية أخرى متطورة فيها تراث أدبى غنى ولها كيانات متميزة فمن أجل حل مشكلة اللغة التى تخلق مثل هذه السخونة و الإنفعال، علينا أن نكون واسعى البال و عطوفين تجاه عواطف الناس. و إن مثال الإتحاد السوفيتى (سابقا) يمكن أن يساعدنا فى هذا الصدد. ففى روسيا برزت مشكلة لغوية مماثلة بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧م فدفعت معارضة المجموعات اللغوية لينين إلى أن يعلن نظرية قوميات فى الإتحاد السوفيتى. و إتخذت الحكومة الروسية اللغة التى كانت رائجة فى روسيا فى عهد قيصر للأغراض الرسمية. و جرى التأكيد فى نفس

nidaulhind.blogspot.in

الوقت بأن كل اللغات الأخرى في الإتحاد السوفيتي سوف تحظى بمكانة متساوية. على هذا ينبغي معالجة مشكلة اللغة بسعة الصدر و العطف و الود حتى لا تبزز مسألة فرض أي لغة بجبر و إكراه إذ أنه ليس في مصلحة القومية. أما الإنجليزية فمنذ أن قام البريطانيون بترويجه خلال القرن الماضي قد صارت جزءاً من حياتنا الإجتماعية في كل أنحاء البلاد. إنها لغة غنية تخدمنا كنافذة على العالم و وسيلة هامة للتفاعل بين المثقفين. فعلينا أن لانتجاهل فائدة الإنجليزية لمجرد أننا ورثناها من ماضينا الإستعماري. و قد أعتبرها بعض مصلحينا الإجتماعيين و التعليميين في القرن التاسع عشـــر مفتاحـــا للتقـدم. و فعلا قد لعبت اللغة الانجليزية دوراً في تنميتنا الثقافية. ونصحنا المهاتما غاندي أيضا بإبقاء نافذتنا مفتوحة ليهب النسيم النقي علينا. في غمارحماستنا المفرطة للغاتنا الوطنية علينا أن لانتخلى عن الفوائد التي امكن حصادها بفضل اللغة الإنجليزية . لأن هذا الموقف السلبي لايتمشى مع فلسفتنا للثقافة المركبة.

العلاقات بين الحكومة المركزية و الولايات:

يتصف تاريخ الفدرالية عادة في جميع أنحاء العالم بتوترات بين المركز و الولايات حيث أن الولايات و المسئولين الإداريين في المركز يؤكدون على مصالح مناطق معينة أحيانا بشدة إلى حد أنهم يحددون المصالح القومية المشتركة بأسلوب متصلب غير معقول. فيجب التغلب على سوء التفاهم والمخاصمات هذه بروح التكامل القومي. و وراء المظهر الخارجي للنزاع حول مشروع توزيع الأموال يكمن في الغالب النقص في الإرادة السياسية لمواجهة حقائق إقتصادية قاسية و بالتالي يتم اللجوء إلى تدابير مؤقتة من قبل الإدارات المتعاقبة. وبعض المجموعات المعينة في الولايات تعارض توزيع موارد الدخل بين المركز و حكومات الولايات. و الإتهام الرئيسي هو أن معظم الموارد المرنة تختص بالمركز، مثل ضرائب الدخل والبلدية و الإنتاج المركزي، فيما تعتمد الولايات على موارد غير مرنة نسبيا و الدخل من الأراضي و الغابات.

nidaulhind.blogspot.in

و قد وجهت لجان مالية عديدة إنتباهها إلى هذه الشكوى و حولت مبالغ متزايدة إلى الولايات،لو أنها قدرت الالتزامات الكبيرة للحكومة المركزية بشأن الدفاع و الأمن و التنمية العامـــة للإقتصـــاد. وبالرغم من تحويلات ضخمة من المركز، بقيت معظم الولايات بإستمرار مصدر إزعاج بسبب الديون المتصاعدة للمركز.و يرى معظم الإقتصاديين بأن المنطق وراء خطة تخصيص المبالغ الممنوحة فى الدستور معقول أساسيا، و إن تحويل موارد إضافية إلـى الولايات ليس حلا للمشاكل المالية التى تواجهها الولايات، فإن الحل الطويل الأجل يكمن فى أعمال عديـدة على جبهتين: (١) كفاءة مالية وتجنب التبذير و ممارسة التقشف فى المصاريف العامة و كبح سياسات تستهدف كسب الشعبية العامة (٢) و الإستغلال الأقصى للموارد المتواجـدة فى قائمة الولايات، و ينبغى توجيه عناية خاصة إلى تخفيف الخسائر و التأكد من تشغيل فعال لهيئات الكهرباء فـى الولايات، و أعمال الرى و هيئات النقـل و الهيئات العامة الأخرى.

فلو اتخذت كل هـذه الخطوات بروح صادقة من التماسك القومى فإن الحدة التى تنشأ كثيرا حول مسألة توزيع الموارد المالية سوف تنخفض بصورة ملحوظة، إن لم يتم القضاء عليها تماما. و فـي هـذا الصـدد، مـن الجدير بالذكر بأن الحكومة المركزية قد شكلت لجنة سركاريا لإستعراض كل أنواع العلاقات بين المركز و الولاية.

مجلس التكامل القومى:

إن إستراتيجيـة كبيرة أخرى تبنتها الحكومة المركزية لإحتواء الإتجاهات الإنقسامية و مقاومتها و كبحها هى تشكيل مجلس التكامل القومى في سبتمبر ١٩٦١م برعايـة رئيس الـوزراء آنذاك الباندیت جواهر لال نهرو. و في أوائل ١٩٦٠م قامت اللجنة العامة لحزب المؤتمر بتشكيل لجنة للتكامل القومى برئاسة السيدة إنديرا غاندى، رئيسة حزب المؤتمر آنذاك، ثم شكلت الحكومة المركزية لجنة للتكامل العاطفى برئاسة الدكتور سمبورنانند في مايو ١٩٦١م وقد عقد إجتماع لرؤساء

nidaulhind.blogspot.in

الوزارات فـى الولايات و الوزراء المركـــزيين فـــى أغسطس ١٩٦١م و اجتمع المجلس لأول مـرة في أوائل يونيـو ١٩٦٢م و عينت أربع لجان لإجراء الدراسة و تقديم التقاريـــر حول (١) الإقليميـــة، (٢) الطائفيـة (٣) قواعد العمل للطلبـــة و المدرسين، (٤) مكانـــة اللغتين الإنجليزيـــة و الهندية، و اللغات الإقليمية في مجال التعليم الجامعى. على أى حال أثناء حكم الراحلة السيدة إنديرا غاندى تم إنعاش مجلس التكامل القومى و تعزيزه. و في يونيو ١٩٦٨م عقد مجلس التكامل القومى الموسع جلسته في سرينجار، حيث أبدت السيدة إنديرا غاندى ملاحظتها بالقول: " فى الواقع، لابد من الكفاح المستمر من أجل التكامل الوطنى و النضال من أجل التضامن القومى، و المحافظة على المثل العليا و الطموحات المتجسدة فى دستورنا. فإنى لا أرى أن وقتا يأتى أبداً لاتريد فيه هذه القوى رفع رأسها. لذا يجب أن يكون من سعينا خلق مناخ و إيجاد ظروف تستحيل فيها مثل هذه الأشياء أو يقاومها فيها المجتمع كله"، و مرة أخرى إجتمع المجلس فى دلهى فى ١٢ نوفمبر ١٩٨٠م (حينما كنت سكرتير الوزارة الداخلية المركزية)و قالت الراحلة السيدة إنديرا غاندى فى هذه المناسبة " إن ما يشغل بالنا هو أن أى نوع من الهند سوف تتوارثها الأجيال القادمة. أ هندا قويـــة و متآلفـة و واثقـــة بنفسها أو هندا متخاصمـــة و ضعيفـــة و إنفصاميـــة؟ نحن نتحدث عن التكامـل الوطنى. أنه ليس مجرد كلام و إنما هو وعى بالثقل و المهمة التى وضعهـا التاريخ على عواتقنا. و لايخالجنى شك فى أن كلنا، بغض النظر عن أحزابنـا و عقائدنا السياسية يكن للحرية و تكامل بلادنا حبا أقصى فوق كل شيء. و لكن الوحدة و الحرية.ليست شيئا يحسب بأن حدوثه محتم. إن اليقظة الأبدية ثمن لتكاملنا، كما هو الحال في كل الحريات"، المجلس قد شكل لجنة حول التآلف الطائفى و التكامل القومى (وأعيدت تسميتها بعد ذلك باللجنة المختصة بالإنسجام الطائفى و الطبقى) لبحث التدابير للمحافظة على التقاليد العلمانية و تعزيز التماسك القومى، ثم أنشئت لجنة دائمة لتطوير

nidaulhind.blogspot.in

اللوائح للأحزاب السياسية و الصحافة حتى لاتجد القوى المسببة للشقاق و الإنفصالية والطائفية طابع السياسة و لاتنال مكاسب دعائية لاتستحقها. وعلاوة على ذلك انشئت لجان عن التكامل الوطنى فى الولايات و المديريات تمشيا مع توصيات المجلس.

ثم إجتمع مجلس التكامل الوطنى فى يناير ١٩٨٣م و قالت الراحلة رئيسة الوزراء السيدة إنديرا غاندى لدى إفتتاحها له.

"إن التكامل الوطنى هو الدفاع الداخلى عن البلاد - النظير المحلى و المدنى للعمل الذى تقوم به القوات الدفاعية للمحافظة على السلامة الإقليمية للشعب. حتى إننا لما كنا منقسمين إلى مملكات سياسية مختلفة كان لدينا شعور بأننا هنود و لكن كلما حدث شقاق بيننا، دفعنا ثمنا باهظا على صعيدى السياسة و الإقتصاد. و كلما كان هناك ضيق فى أفق التفكير ، إنه قد أدى إلى الخاصمات فيما بيننا، و كلما أغلقنا أذهاننا لأفكار جديدة، كانت لنا نكبة. و أصبحنا تحت حكم أجنبى. فإن دروس التاريخ و ظروف الحياة المعاصرة تطالب بوضع توكيد اقصى على الوحدة السياسية، كلنا ننتمى إلى دين و نحن ولدنا في جزء من أجزاء الهند، و لنا لغة أم معينة. و لكن يجب ألا يقف شيء منها في طريق هنديتنا، و كوننا هنود"

و بما أن مجلس التكامل الوطنى منبر فعال للمباحثة و تحليل القضايا والمشاكل المتنوعة المتعلقة بمصالحنا القومية و الوصول إلى إجماع الأرراء بشأن استراتيجيتنا لحل الخلافات، ففى رأيى ينبغى أن يعقد الإجتماع فى فترات قصيرة و يوفر للبلاد بأكملها قيادة في هذا الأمر الهام. و لزيادة الفعالية ينبغى إعادة تشكيل المجلس، لو إقتضى الأمر، بمايضم عددا من أشخاص لهم ثقة بالعلمانية و إلتزامات بها حتى يمكن الإنتفاع بمجموعة أكبر من آراء شعبية و متنورة فى مداولاته.

و هناك ضرورة ملحة لبلورة جهاز على المستوى القومى

nidaulhind.blogspot.in

والولايات لتنفيـذ السياسات وخطوط الإرشادات التى يقوم بإعـدادها المجلس. والمسئولون الذين يعهد إليهم بهـذا العمل يجب أن يتم اختيارهم بعنايـة دقيقة و أن يكونوا أشخاصا من ذوى المواهب وملكات الإبـداع و ممثلين صادقين لثقافتنا المركبة. و الجهاز المعد لهـذا الغرض يجب أن يكون مسلحا بسلطة قضائية لازمة و يملك موارد كافية للقيام بالنشاطات الكفيلة بتنمية التكامل القومى.

التكامل الوطنى ـ حركة الشعب :

إن الذين ينصحون بالتكامل الوطنى عن طريق وسائل إجباريـة لهم نزعـة إلى الإعتقاد بأن التكامل الوطنى بطبيعته هـو مشكلة النظام و القانون و هو شىء لايهم إلاّ الحكومة وحدها. فى الحقيقة التكامل الوطنى هو هم الشعب بأسره. و لا علاقة لها بالحكومة إلاّ من ناحيتين. اذا كانت القوى المعاندة لروح التكامل الوطنى تعمل على تعريض أمن البلاد للخطر، إذن من البديهى أن يلعب الجهاز الحكومى فقط دوراً خطيراً.

دور المنظمات التطوعية:

لقد آن الأوان لدارسة مشكلة التكامل الوطنى بنفس السياق الذى بحثت فيه مشكلة الإستقلال قبل ١٩٤٧م. و وفقا لـذلك، سيكون من اللازم تنظيم حركة فى طول البلاد وعرضها مع إشراك الناس من سائر أرجاء البلاد، و من كل طبقات الشعب، مـن المناطق الحضرية و الريفية، من أجل خلق وعى عن وحدة البلاد و إتخاذ التدابير اللازمة لتعزيزها. و في هذه الحملة الجماهيرية من أجل التكامل القومى، سيكون من الضرورى إستخدام كل الموارد المتوفرة. و علاوة على الجهاز الحكومى، يجب تسخير خدمـات الوكالات التطوعيـة ـ الإجتماعيـة و الثقافيـة و الإقتصادية والإكاديمية والمهنية، لهذه القضية. فإنهابسبب ارتباطاتها بمستوى الجذور، وشعورها العميق بخدمـة الإنسانية و طريقتها المرنة للعمل، سوف تتمكن من أن تلعب دوراً رئيسياً بهذا الشأن.*

nidaulhind.blogspot.in

تدابير علاجية للمستقبل :

إن المسح الموجز لعملية تطور شعورنا القومى الذى حاولت أن أقدمه في سلسلة هذه المحاضرات، يكون قد أوضح حتى الآن بأن العملية تحتاج إلى المزيد من التعزيز عن طريق المساعى من جانبنا. و رغم أن الشعور بالوحدة فى بلادنا، كما حاولت أن أوضحه كان موضع إهتمام منذ أزمنة قديمة و كسب تدريجياً المزيـد من الجوهـر و التماسـك و خاصة خلال حركة إستقلالنا، فإنه حتى أليوم ليس قـويا كما ينبغى أن يكون. فمازالت هناك قـوى مجـزأة و طاردة من المركز تواجهنـا، و يجب أن نتغلب عليها. و هناك شعور قوى بين عناصر خاصة فـي البلاد بأن الهنـد تواجـه تحـديات شديـدة لوحـدتها، و هناك مخاوف بأن ثقافتنا المركبة قد تتعرض للتآكل السريع.

إن تجربتنا فى الماضى تذكرنا بأننا فقـدنا إستقلالنا لابسبب النقص فى البسالة أو المقدرة فى الدفاع عنا و إنما بسبب النزاعـات و الإنقسامات الداخلية التى أوهنت القاعدة بالذات التى نقف عليها. فإن وحدة هذه البلاد هى مسئوليتنا المقدسة و تراثها الثقافى الثمين هو رأسمالنا الذى يجب ألا نضيعها. فعندما نالت البـلاد إستقلالها، قالوا و هم يعبرون عن شكوكهم الخطيرة بأن وحدة الهند سوف تكون مسألة أيام. فقد أعلن و نستون تشرتشل مبتهجا بالنصر بأن الهند تنقصها المقدرة فى الحكم، و لذا فإنها سوف تسقط لتتجزأ في غضون ثلاثين سنة. كماصدرتكهن متشائم أخر عن ميلوون ديلجاس الذى قال :

> *"رغم عطفى للهند فإنى لست مقتنعا بأنها سوف تبقى متحدة لمدة طويلة. فإن المناطق اللغوية الراهنة سوف تصبح تدريجيا مستقلة، و الأجزاء الجنوبيـة ـ الغربيـة، و الجنوبية الشمالية من الهنـد قد تنفصل فى الغالب وتتحول إلى ولايات مستقلة".*

و حتى أن مثقفا اعتدالياً مؤمنا بحرية الإرادة مثل اللورد تيريفيليان أيضا لم يكن مقتنعاً بأننا سوف نقدرعلى أن نحافظ على

nidaulhind.blogspot.in

وحدتنا، فكتب: "إن ١٥٠ سنة من الحكم البريطاني كانت قد وصلت بين أجزاءها المنفصلة معا بتقاليدهـا القضائيـة و الثقافيـة المشتركـة و إقتصادها الموحد و نضالها المشترك للإستقلال. و إن الهند سوف تموت شنقا معا "فعلينا أن نبين أن كل هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة. و نبرهن بتصميمنا بأن كل هذه التنبؤات عن المصير كانت خاطئة و إنها لم تقدر مقدرتنا على التشبث بأهدافنا وإصرارنا الجماعي على التماسك حق تقدير.

و زيادة على ذلك، هناك قوى تعمل جاهدة لزعزعة بلادنا كما قالت السيدة إنديرا غاندى بحق

"إن هناك قوى فى العالم منهمكة فى العمل و هى تستغـل و سوف تستغل أى ضعف من جانبنا و خاصة في مثل هذه اللحظة. ففى العديد من البلاد تنال المجموعات الانفصالية دعما من وكالات و مصادر خارجية"

و قد أضاف هذا بعدا جديدا لتعقد مشكلة النزاع الداخلى فى البلاد. كما أن بروز الإرهاب الدولى قد جعل الوضع أكثر تفاقما.

و فى سياق التحليل الموجز لنواح مختلفة من مشكلة الوحدة القومية، قد إقترحت فعلا بعض التدابير العلاجية أيضاً. إن تحليل المشكلة هو بنفسه شرط أساسى لمعالجتها بنجاح. فينبغى أن يرتكز برنامجنا لتعزيز وحدتنا القومية على فرض حظر على الطائفية، و على النعرة الإقليمية المفرطة و عدم العلمانية، و التوترات الناشئة عن التطور الإقتصادى القوى الطاردة من المركز و التى تولده العصبية اللغوية و الولاءات الضيقة. و يجب كسر القوة الطبقية الخانقة كما يجب حل مشكلة العزلة القبلية.

إننى حاولت منذ البدء التأكيد على تأزم المشكلة التى نحن نواجهها اليوم و لكنى لا أود أن أنذر بالخطر لجعل الموقف ميلود رامياً و علينا أن نتذكر أنه فى بلد واسع الأرجاء مثل الهند مع تنوعات كثيرة سنكون فوق الإنسانية فى حالة إنعدام الخلافات و النزاعات،

nidaalhind.blogspot.in

و لكن هذا لايعنى أن ننظر إلى هذه النزاعات بإستخفاف بل علينا أن نرفض بأن نكون مغلوبين على أمرنا أمام هذه النزاعات. و إعترافاً بالحقيقة بأنها شيء طبيعى فى وضعنا لابد أن نعالجها بحزم صارم.

الديمقراطية :

لا حاجة إلى أن نقلق بطريقة مفرطة، فعندنا عناصر إيجابية عديدة و لو أخذناها فى الإعتبار فإنها سوف تعطينا منظوراً صحيحاً. إن وحدتنا القومية،رغم عوائق عديدة، قد كسبت أساسات متينة. و عندنا بنية سياسية فيدرالية راسخة قد اجتازت اختبار الزمن و تحمل فى طيها ضمانات وقائية طبيعية لإدخال تعديلات مناسبة لمواجهة التحديات التى قد تنشأ. الهند دولة ديمقراطية يشترك فى بنائها ملايين من الجماهير العامة. و السلوك الإنتخابى للناخبين الهنود دليل واضح لبصيرتهم و رأيهم السياسى السديد. إن الثقافة الديمقراطية التى لها جذورعميقة فى البلاد هى إحدى النقاط القوية لتكاملنا القومى. -

الهند بلد علمانى لا يتعرض فيه أحد لاضطهاد و لايحاكم بسبب معتقداته الدينية. فلكل مواطن حق فى أن يعتنق ديانة و يمارسها. فالطابع العلمانى لنظامنا السياسى نفسه تراث نستطيع أن نعتمد عليه. إن عملية التحديث التى بدأت في بلادنا في القرن الماضى قد نالت زخماً و زودتنا فعلا ببنية أساسية طبيعية لربطنا جميعا. فشبكلة السكك الحديدية و وسائل الإتصالات كلها قصرت المسافات بين أجزاء مختلفة من البلاد. كما أن نمو الصناعات و توسيع الأسواق قد عزز روابط الوحدة. و بحصافة زعمائنا السياسيين و التجاوب المتحمس الذى أبداه شعبنا بمناسبات عديدة، قد أثبتنا بأننا نستطيع أن نواجه تحديات شديدة كلما تظهر. و الطريقة التى عالجنا بها مشاكل دمج الولايات الأميرية فى الدولة الإتحادية، و نقل السكان بعد التقسيم و إعادة توطينهم، و التهديد الموجه لأمننا من القوى الأجنبية الإنفصالية مثلا فى ناغالندا فى الستينات و السبعينات،

nidaulhind.blogspot.in

و فى البنجاب حاليا قد جددت ثقتنا بروح الوحدة و قدمت بينة واضحة على صحة أمتنا.

الوحدة وليس التماثل :

عند سعينا لتغذية و تدعيم وحدتنا القومية علينا أن نكون على حذر من بعض الاتجاهات للعمل. فيدعو بعض المتحمسين للوحدة القومية إلى التكامل القومى بفرض التماثل و ضم عناصر مختلفة قهراً فى التيار السائد. هذا النهج من الفكر يضر بمصلحة الأمة. فقد قال رابندراناث تاغور في بيانه المنير و الموجز "إن الوحدة ليست التماثل و ليس إلاّ على الذين هم مختلفون أن يتحدوا" فسواء أكانت هذه مسألة اللغات أو الفئات أو النزعات الإقليمية، علينا أن نتمسك بمبادئ المساواة ونتجنب الجبر و الإكراه. فقد كان هناك إقتراح قبل قليل بأنه لو إرتدى كل الطلبة من كنياكوماري إلى كشمير و من امريتسار إلى تيزفورزيًا موحدا، فإن ذلك سوف يساعد التكامل القومى إن مثل هذه الوسائل تعكس، كما أرى، تصورا سطحيا للوحدة. فإن وحدتنا القومية لابد أن تتحقق بدون تضحية المنظور العريض للتنوع الثقافى

عدم تشجيع السياسات الطائفية/ الطبقية:

ومما يؤسف له أنه ضمن سياسات إنتخابية سريعة التأثير، تستغل أحيانا الولاءات الضيقة و العواطف غير المنطقية لعامة الناس فإذا كان هناك إعتقاد عام اليوم بأن العملية الإنتخابية تميل إلى إبراز توترات إجتماعية بين الطبقات و الفئات الساكنة فى الهند الريفية، فإنه ليس بدون أساس تمامـــا. لـذا أعتقـــد أن بنيتنا الديمقراطية سوف تتعززلو مارست كل الأحزاب السياسية ضبط النفس و ابتعدت عن الدعوة إلى استغلال ولاءات و عواطـف طبقيـة و طائفية. علاوة علـى ذلك، ينبغى جعل أحكام قانون تمثيل الشعب المتعلقة بإستخدام الممارسات الفاسدة لإستغـــلال عواطف الطبقـات

nidaalhind.blogspot.in

و الفئات أكثر صرامة في نفس الوقت.

جولة فى أنحاء الهند:

و طريقة أخرى لتعزيز التماسك القومى هى تطوير برنامج "*للجولة فى أنحاء الهند*" للأشخاص المنتمين إلى فئات مختلفة و مهن متنوعة عديدة و حرف مثل قيادات الطلبة و الفلاحين و النسوة و العاملين الإجتماعيين، و المدرسين والفنيين و غيرهم و يمكن أن يضاف إلى ذلك تطوير برنامج التبادل الثقافي من ضمنه جولات فرق الرقص والموسيقى و الفرق الأخرى لتقديم عروض فنية في أجزاء مختلفة من البلاد. و يمكن أن نعيد إلى ذاكرتنا أن ذلك كان جزءا لبرنامج النهوض بالمجتمع فى الخمسينات و الستينات.

الإدارة:

أنا لاأقبل أى عذر من الإدارة على عدم فاعليتها. فكما سبق لى أن قلت إن للإدارة دورا حيويا يجب أن تلعبه فى بناء الأمة. و الأمر الذى أود أن أشدد عليه هو أنه يجب أن يكون هناك تعاون فعال بين الإدارة و الشعب. ففى بنية ديمقراطية ينبغى أن تكون البيروقراطية متجاوبة مع الشعب وتبذل مساع للحصول على تعاونه في حل المشاكل. إن إدارة متصلبة و منعزلة و جمهورا سلبيا ظاهرة لماض إستعمارى. فإن القوة الحقيقية للحكومة تستمد من شعبها. و لما تنال الأساليب و البرامج التى اعدتها الحكومة قبولا و إستحسانا من الشعب فحينئذٍ فقط تتحقق أهدافها. أما فى حالة غياب تعبئة فئات واسعة من السكان، فإن البرامج المعدة سوف تبقى حبرا على الورق.

إن دور الحكومة هام و ليس منحصرا في إعداد برامج و سياسات فقط و إنما يتعدى إلى تطبيقها بتعاون الشعب. و أحيانا يكون لدى الإداريين فهم محدود لمسئولياتهم فهم يحسبون أن كل ما عليهم أن يعملوا هو دراسة المشاكل و إعداد تقارير عنها و إعداد برامج عمل لها. و هم ينسون أنه في أثناء التطبيق أيضا عليهم أن يقوموا بدور

nidaulhind.blogspot.in

التشجيع والتنسيق. فقد أشار و التير جولد ستين (WALTER GOLD-STEN) و هو مؤرخ ممتاز "إن القرار أو الهـــدف هو عامـــل للتحديـــد. و الشيء الأهم هو عملية التطبيق، و لماتحظى الإدارة بإعتراف عامة الناس بأنها تعمل من أجل تحقيق مصالحهم فحينئذٍ فقط تستحق لقب"الحكام" حسب مفهوم أفلاطون.

الخدمة الإدارية الهندية والخدمة الشرطية الهندية:

بهذا الصدد أنا أود أن أوكد بأن الخدمة الإدارية الهندية و الخدمة الشرطية الهندية تشكل قوة موحدة هامة لبلادنا. فقد إتخذت قرارات هامة فى الآونة الأخيرة بشأن تعيين الموظفين التنفيذيين فى وظائف الإدارة الهندية فى الولايات، فقد تقرر بأن يعين ٥٠٪ من الموظفين التنفيذيين من خارج الولاية فى المستقبل. هذا قرار حكيم بدون شك، و لكن إلى جانب ذلك يجب إتخاذ خطوة أخرى أيضا و هى أن الموظفين فى الخدمة المدنية فى الولاية و الذين تجرى ترقيتهم إلى الخدمة الإدارية الهندية، يجب أن يرسلوا إلى خارج الولايات التى ينتمون إليها. و هكذا تحصل المحافظة على التوازن بين الإداريين من خارج الولاية و داخلها.

دورالجيش:

الجيش الهندى يمثل قوة متينة هامة أخرى فى بلادنا. فالتجنيد فيه يتم الآن على نطاق قومى بما يجعله يمثل كل أجزاء البلاد تقريبا. و يجرى اختيار العناصر من مجموعات و ديانات و طبقات و مناطق مختلفة. و هو يمنح شعورا بالوحدة و شعورا بالإنتماء و فوق كل شيء شعورا بالنظام، و هذا الشيء بالذات مطلوب في كل مجالات الحياة. و فى البلاد العديدة للعالم قد أصبح تجنيد الشباب فى الجيش و عملهم فيه لمدة سنتين على الأقل أمراً اجبارياً. فجعلت الحكومة الإيطالية الإلتحاق بالجيش إجباريا لكل واحد لمدة سنتين. و أرى أن لهذا القرار أثرا كبيرا على سكان المناطق الثلاث في ذلك البلد بماحثهم

nidaulhind.blogspot.in

على التعايش معاً كأمة واحدة. لذلك أنا أطالب بالحاح بأن يكون التجنيد فى الجيش فى بلادنا أيضا إجباريا لكل شاب لمدة سنتين. و ذلك مع إدراكى بصفة جيدة بأن النفقات فى هذا الشأن تكون باهظة. و لكن الفوائد تكون أضخم من ذلك و ذات شأن عظيم. و الاستثمار سيأتى بثماره فى شكل الوحدة و الإنضباط و ظهور أمة متحدة تماما.

التنمية الإقتصادية:

و قد سبق لى أن قمت بلفت نظركم إلى دور الإقتصاد فى التكامل القومى. إن عدم المساواة من بعض النواحى أمر لا مفر منه و ليس ذلك شيئاً مذموماً. و لكن إذا كان له طابع يحط من شأن الجوهر البشرى و مكانته فلايمكن و لاينبغى أن نتحمله. فعدم المساواة من هذا النوع له أثر سيىء على المجتمع البشرى و أنه يولد مساوئ إجتماعية مثل الطائفية والعقلية المتحجرة. فمن أجل مكافحة القوى المجزأة و تدعيم قوى التماسك القومى، علينا أن نشن حملة ضد عدم المساواة الإقتصادية. عندمايكون الناس في وضع متين من ناحية الإقتصاد، فأرى أنهم لايتورطون فى عمليات تخريبية إلاّ قليلا. إذن ينبغى صياغة و إعداد برامج للتنمية الإقتصادية بطريقة تسد حاجات المزيد من الفئات الضعيفة فى المجتمع مع إزالة اللاتوازن الإقليمى أيضاً فى التنمية.

التعليم:

لابد أن يواجه أى برنامج عملى لتنمية الوحدة القومية تحديا ناجما عن الأمية على نطاق واسع. ففى سياق مواجهة إتجاهات إنقسامية علينا أن نتذكر بأنه يجب انقاذ عامة الناس عندنا من مأزق الأمية. و لكننا من سوء الحظ لم ننجح في محو الأمية خلال الثلاثة أو الأربعة عقود الماضية منذ حصولنا على الإستقلال. و قد وصف المهاتماغاندى، أبو الشعب، الأمية بأنها إثم الهند و عار عليها.

إن القلق العميق بشأن محو الأمية كما إنعكس في ملاحظة

nidaulhind.blogspot.in

. المهاتما غاندى قد دفع القائمين بصياغة دستورنا إلى تحديد مدة عشر سنين لتحقيق هدف معرفة القراءة و الكتابة للجميع. و لكن للأسف! إننا مانجحنا حتى الآن فى إنجاز القراءة و الكتابة إلا لـ ٣٦٪ فقط من سكاننا. و حسب تقدير البنك الدولى المنشور فى وثيقة "تحدى التعليم" سوف يوجد فى الهند أكبر تجمع من الأميين فى العالم حتى حلول عام ٢٠٠٠ الميلادى؛ مع ٥٤,٥ بالمئة من السكان الأميين البالغين من العمر ٥ ـ ١٩ سنة، فنظرا لهذه الضخامة في تعداد الناس الأميين، ستكون مهمة نشر الأفكار الحديثة عويصة للغاية. و فى هذا الصدد هناك حاجة إلى التنبه إلى الإتجاهات المقلقة الأخرى أيضاً. فمن بين مجموع التلاميذ المسجلين فى المدارس الإبتدائية يكمل التعليم الإبتدائى حوالى ٢٤٪ فقط . فمن اللازم أن تحظى مهمة تعميم التعليم الإساسى أولوية قصوى. كما يحتاج النظام التعليمى بأسره عندنا إلى تجديد الصياغة و البناء والحيوية. و تحقيقا لهذه الغاية قد تم وضع سياسة تعليمية جديدة، و تشكيل وزارة جديدة بإسم تنمية الموارد البشرية. و لى كل الأمل بأنه لما تتم بلورة السياسة الجديدة، فإنها سوف تغطى مجالات تكون لها علاقات مباشرة مع تعزيز قوى الوحدة القومية.

الكتب المدرسية فى التاريخ:

و من الجدير بالذكر هنا أن التفسير الطائفى للتاريخ الهندى قد غذى أيدولوجية طائفية بين المثقفين عندنا. فقد أدرك المهاتماغاندى جيداً بالأضرار اللّامتناهية التى تكبدها كتب التواريخ للشباب عن طريق إساءة تفسير الماضى على الخطوط الطائفية. فقد كتب: "إن الإنسجام الطائفى لايمكن تحقيقه بصفة مستديمة فى بلادنا طالما ندرس نصوصا محرفة فى المدارس و الكليات عن طريق كتب التواريخ. (١٠) فقد إعترف "*لاله لاجبت رأى*" بأن كتب التاريخ هى ألتى جعلتنى أتوقف عن احترام الإسلام. (١١)

و من الغريب أن تقسيم عصور التاريخ الهندى إلى الهندوسى،

nidaulhind.blogspot.in

الإسلامى و البريطانـــى الذى إبتدأ لأول مرة فى تأليف جيمس ميلز عن "تاريخ الهند البريطانية" مازال مستمرا في كتبنا المقررة للمدارس حتى الآن. لايزال المؤرخون يعتبرون العصر المتوسط كله فترة عداء مرير طويل بين الديانتين الكبيرتين· الهندوسية و الإسلام، بصرف النظر عن المشاركة الفعالة و التفاعل المنسجم بين أصحاب الديانتين فى المجالات الثقافية و الإجتماعية الذى زاد حياتنا القومية غنى و ثروة. و لاشك فى أن عددا كبيرًا من العناصر فى مشهدنا الإجتماعى و الثقافي مثل الموسيقى و الرسم و التعمير و الأدب الذى نفتخر به اليوم، ثمر للمساعى المشتركة لأتباع الديانتين على مدى القرون.

و كثيراً ماينسى الناس أنه عندما كان السلطان إبراهيم، سلطان دلهى، يواجه بابر فى المعركة الأولى فى "بانى بت" هربت بعض قواته من الأفغان من ميدان المعركة ولكن الملك شيكرماجيت ملك جواليار وقف بثبات إلى جانب السلطان و مات فى القتـــال كجنـــدى باســل. و الحقيقة أن وجهة النظر الطائفية تريد منا أن نعتقد بأن الحروب فى العصر المتو سط كانت مظهرا للخصومة بين الهندوس و المسلمين على أساس الدين، و هذه محاولة لتشويه الحقائق و تنطوى على تحريف التاريخ عمداً.

و إن تدوين الوقائع التاريخية منذ اتش ـ ايم ـ ايليوت في حوالى منتصف القرن التاسع عشر نشر وجهة نظر كاذبة بأن الدولة الهندية فـى العصـــور الوسطـــى كانت مبنيـــة على التنـــازع بين الهنـدوس و المسلمين و هى التى اتاحت فيمابعد أساسا منطقيا لنظرية شعبين، الأمر الـذى مزّق نسيج ثقافتنا المركبة. و قد ظهر الأثر المضر لهذا النمط للتفكير بحيث أن المسلمين الذين تربوا على مثل هذه النظرية طالبـوا بدولـة منفصلة و الهندوس حكموا على المسلمين بأنهم أجانب وأثاروا ضجة لطردهم. و الضرر الذى أحدثه المؤرخون الطائفيون الذين تبنوا للثقافة تعريفا مبنيا على الدين و بالغوا فى الثناء على

nidaulhind.blogspot.in

الحكام المنتمين إلى مجموعتهم، لايمكن أن يقدر بسهولة. فهم بسبب الغلو في كبريائهم و الإفتراض المسبق في مواقفهم قد نبذوا المبادئ النقدية و تجاهلوا عن قصد الأبعاد الإجتماعية و الإقتصادية للماضى و لم يدخلوا الظروف السائدة لدى الشعب و الأحداث التاريخية في حسابهم إلاّ قليلا.

و إلى جانب النزعة الطائفية فى الكتابات التاريخية، هناك ميزة رجعية أخرى من شأنها أن تحدث تأثيراً مضاداً على تكاملنا القومى وهى نشؤ دراسات عن مناطق محلية مع منظور إقليمى ضيق. فيحاول هؤلاء المؤرخون تركيز إنتباههم على تفاصيل تافهة للتاريخ و الثقافة الإقليمية مع أقصاء عناصر مشتركة أكثر أهمية بالنسبة للبلاد ككل. و وراء هذه النزعة الضيقة الأفق في كتابة التاريخ هناك عوامل عديدة أخرى منها اعادة تنظيم الولاية على أساس لغوى. فينبغى بذل جهود خاصة للتأكد من أن تكون كتبنا المدرسية خالية من الجراثيم الطائفية الضيقة الأفق.

و كذلك من المقلق في هذا الصدد عدم التوازن فى تصويرنا و تبجيلنا لأبطالنا المحليين و القوميين في كتبنا المدرسية فى التاريخ. فعلى سبيل المثال، لا ينبغى إعتبار شيفاجى بطلا مهاراستريا بل بطلا قوميا. و هكذا السردار لاشهيت من آسام. فهو إسم ذوشأن عظيم فى تاريخنا. و لكنه وضع في طوايا النسيان. و هكذا هناك نزعة أخرى لتمجيد الأبطال المحليين تحول إنتباه الناس من الأبطال القوميين. فإننى أرى أنه من الضرورى تدريس كتب موحدة في التاريخ تعرض الأحداث بأسلوب متوازن و موضوعى من كنياكوماري (فى مدراس) إلى كشمير.

دورالإكاديميين:

إن ظاهرة الإستخدام الإعتباطى لتراثنا الحضارى ليست مقصورة على المؤرخين فحسب. فالمصالح المغرضة فى بلادنا تستخدم كل نوع من الأمور المبنية على الوهم و الخرافة والعاطفة لماضينا لأغراض متعددة، و سواء كانت هذه الأمور أكاديمية أو سيا سية

nidaulhind.blogspot.in

أو إجتماعية فقد تم التلاعب بها من قبل العناصر الأنانية. و يؤ سفنى أن أقول إنه حتى الحياة الأكاديمية أيضاً ليست خالية منها. نحن نستمد أزراً و إلهاما من ثقافتنا الماضيـــة. و لكن لن يتحقق هـــذا مالم نفصل ما هو على قيد الحياة عما هو قد مات. و هناك حاجة إلى شعورصالح للتمييز و التخلص عن الخرافات و التقاليد الأقطاعية اللاعقلانية.

العلوم و التكنولوجيا:

إن نشر معارف علمية و تكوين مزاج علمى لازم لإحـلال التحديث الذى هو حـل دائم لمشاكلنا. و كذلك تنميـــة روح البحـــث و المذهب العقلى بدل أكيد لنظامنا الإجتماعى المهجور و تقاليدنا العتيقة وعواطفنا المتحجرة. فشعارنا ينبغى أن يكون التسامح فى الدين و اللبرالية فى الديمقراطيـة و السياسة، و الإشتراكيـة فى التنمية الإقتصادية. فلو وضع هذا الإمتزاج الثلاثى محل التنفيذ بصورة فعالة فإنه سيؤ دى إلى إحـداث ثـورة إجتماعية وثقافية جديدة فى البلاد و يكفل روح الوحدة القومية التى نحن كلنا نتوق إليها.

دور وسائل الإعلام:

كلمة فقط أريد أن أقولها عن وسائلنا الإعلامية فهى تستطيع أن تلعب دورا حيويا فى تنميةَ روح الوحدة القومية. إن هدف وسائل الإعلام هو تثقيف الشعب و تنوير أذهانـه. و يمكن إستخدامها كأداة لتغيير المجتمع بتعبئة الرأى العام. و قد أحرزت شبكات إذاعة عموم الهند و التلفاز فى الوقت الحاضر إمتداداً واسع النطاق. أنها يمكن أن تذيع صوراً من تاريخنـــا من شأنهـــا أن تنمى الإنسجـــام الطائفى و الوحدة القومية مثل إحداث ثورة عام١٩٥٧م و مجزرة جليان والاباغ، و حركـة عدم التعاون، و يمكن أن تقدم روايات مسلسلة لتذكيرنا عن الأخطاء التى عرضت حريتنا للخطر مثل خيانة ميرجعفر و أومى شند في البنغال (ضد سـراج الدولة) و صادق في دكـن (ضدتيبوسلطـــان) أو تقدم سير رجالات و ألوانا مختلفة لثقافتنا الغنية و نحوها. و هنا لايعتبر خروجا عن الموضوع لو قدمنا إقتراحا بترجمة كتب ذات جودة

nidaulhind.blogspot.in

عالية من كل اللغات الكبرى. و خاصة الكتب التى أختيرت لجائزة الأكاديمية الأدبية لا باللغتين الهندية و الإنجليزية فقط بل باللغات الإقليمية الأخرى أيضاً. فيكون لكل هذه الأشياء أثر طويل المدى فى تنمية وحدة أمتنا.

حكومة ذاتية:

إعتقد أن هناك فعلا وعياً عند الشعب بأنهم يعيشون تحت حكومة واحدة. هذه الحكومة تحمى حياتهم و ممتلكاتهم و توفر النظام و القانون والعدل و تجعلهم يشتركون فى المنافع المادية. على هذا يمكن تعزيز هـذا الوعى و الروح اللازمة للتكامل القومى و تنميتها برعاية و تغذية منشآت ديمقراطية على مستويات متعددة. فاليابان خير شاهد، على ذلك. إن مثاله يوضح لنا كيف نمت الوحدة القومية هناك نتيجة لتطوير معتقدات و منشآت محلية. فيجب إشراك الناس في كل مراحل من عمليات الحكومة الذاتية.

الأوضاع السلمية فى الجنوب:

إنـــه سيعتبـــر اهمالا منـــى لولا أذكر بأن البنيـة الثقافيـــة و الإجتماعية فى الجنوب خالية فعالا من التوترات و العلل التى توجد فى الولايات الشمالية. فإنفجار الغضب الطائفى نادرة فى الجنوب. و هناك رشاقة و دماثة فى العلاقات بين الطوائف والفئات، الأمر الذى أجده مبعثا على التفاؤل. و إنها مساعـــدة على الإستقرار و الإنسجام الإجتماعى و السبب في هذا الإختلاف يمكن أن يشاهد في طبيعة التطورات التاريخية فى الجنوب.

إن إمتزاج ميول متنوعة في ثقافتنا المركبة تجسد بطريقة جلية في نواح مختلفة من الحياة الإجتماعية و الثقافية في الجنوب. فقبل قرون ذهب شنكارا و رامانـوج إلـى الشمال كسفيريـن للثقافـــة و كشارحين للفلسفة (الهندوسية) فيعتبر أسهامهما جزءاً لايتجزأ لتراثنا القومى.

nidaulhind.blogspot.in

خاتمـــــــــــة :

إن مسألة الوحدة و التكامل القومى معقدة و خطيرة بحيث أنـه لا يمكن معالجتهابصيغة سهلة. فتدابير النجاح تكمن في إعتزامنا على القيام بدراسة متينة و دقيقة للظروف السائدة و تاريخنا حتى نكون في وضع نستطيع فيه تحديد قضايانـــا الحقيقيـــة بطريقة صحيحـــة و معالجتها على الخطوط التى أشير إليها في هذه السلسلة من المحاضرات. فقد أوجز جواهرلال نهرو هذا الأمر هكذا: "علينا ألانكون محـدودى النظـر و ذوى تفكير اقليمى و طائفى و طبقى إذ أننا ملتزمون بأداء مهمة عظيمة. فلنكن مواطنين لجمهورية الهند، نقف بإستقامة رافعين رؤسنا و ننظر إلى السماوات قائمين على أقدام ثابتـة نبنى تركيبة الشعب الهندى و تكامله، لاشك أن التكامل السياسى قدتحقق إلى حدما. و لكن الشيء الذى أريد أن أقوله أعمق بكثير. و هو تحقيق التكامل العاطفى لدى الشعب الهندى حتى نتمكن من الإلتحام فى وحدة قومية قوية و نحافظ في نفس الوقت على تنوعنا الرائع و فى ذلك اخلاص و حكمة و تنبيه فلنكن مجتمعاً فى وحدة واحدة.

و قبل أن أنهى كلامى أود أن أنقل عبارة من رسالة كتبتها السيدة إنديرا غاندى إلى فى ١٣/أغسطس ١٩٨٤م ردا على رسالتى للتهنئة التى بعثت بها إليها بمناسبة عيد الإستقلال.

"على رجال الدولة أن يقفوا كفرد واحد مع بقية البلاد للدفاع عن التكامل الوطنى و جعل الحرية حقيقية حتى لأضعف الفئات".

توضح هذه العبارة كم كانت قضية الوحدة الوطنية محبوبة لديها و كيف أنها لم تضيع فرصة إلاّ و أكدت فيها على ضرورة المحافظة عليها مهما كان الثمن.

و أخيرا إسمحوا لى أن أضيف هنا أنه فى الجزء المبكر من هذا القرن كان العالـــم يعرف بشاعريـــــن هنديين فقط و همـــا: طاغـــور

nidaulhind.blogspot.in

و محمد إقبـــال. و إلـى جانبهما ظهر إسم ثالث و كان ذلك فالاتهول. فصوته كان صوت محب لوطنه و سلامته. فلايسعنى إلاّ أنْ أنقل أبيات من قصيدته الساحرة التى عنوانها "فورا فوراً وتبدأ هكـذا.

Pora Pora nalik nalik dooradooramuyaratte.

Bharat akshamadeviyude trippatakakal'

إنها مـدح مفرط للعلم القومـى الـذى يرمز إلى كفاح الهنـد مـن أجل الحرية. و إنتصار الهند فى الكفـاح و سيرهـا إلى الأمـــام. و كما تعلمون هذا علم ذوثلاثة ألوان. فاللون الأحمر يرمز إلـى الكفاح و التضحية، و الأبيض إلى السلام، و الأخضر إلى تقدم البلاد و أنا متأسف بأنى أنقل الترجمة الانكليزية للقصيدة

Higher and higher still higher and higher and day by day

Must rise the holy flags of the divine land of Bharat

And they must stir up fresh waves in lake of the sky

And show the way for those who work for the world's good! .

Offspring of the same womb. Let us unite and try

To wash our hands clean and take up this flag.

Let this be or injustice the winding sheet

Out of the cloth woven from the thread we have made

And let it flutter and glitter on the flagstaff of Truth:

A winding spray of eternal freedom for us who are duty- bound.

أعلى فأعلى بل أعلى فأعلى يوماً فيوماً
لترتفع الأعلام المقدسة لأرض البهاراتا الإلهية.
و تر فرف وتتموج في بحيرة السماء النقية.
و تنير السبيل للذين يعملون من أجل خير العالم.
ياذرية الرحم الواحدة لنتحد و نجهد.
و نغسل أيدينا غسلا نظيفا و نحمل هذا العلم.
ليكن هذا العلم كفنا للجور
و ليكن من القماش المحبوك من الخيوط التى صنعنا ها.
و ليرفرف و يتألق على سارية علم الصدق

تلخيص و تعريب : شميم الحسن أمانة الله

nidaulhind.blogspot.in

الهوامش:

١ ـ رشيد الدين خان "تحدى بناء ثقافة مركبة"، المجتمع الهنـــدى مشاكـل التكامـل و إمكانياته. تحرير، راديه موهان، نيو دلهى ص ٢ ـ

٢ ـ المجتمع الهندى، مشاكل التكامل و إمكانياته. ص. ٤ ـ

٣ ـ يقول البروفسور مجيب فى كتابه النفوذ الإسلامى على المجتمع الهندى، دلهى عام ١٩٧٢، ص ١٣٧ ـ

"لانستطيع أن نحدد فلسفة الأردوية فمجالها يمتد من الأغانى الشعبية التى قلما توجد فيها كلمات من الفارسية الخالصة و كان من المفروض أن يكون ذلك فالإمتزاج الثقافى دعـــوة لتعيش و تشعـــر في عالم واسع، و تنظر فـي الحب و المعاناة، و الرشاقة و المراوغة، و هى تتصف بالعالمية التى ترفض عبودية الزمان و المكان"

٤ ـ رينان مفكر فرنسى عرّف الشعب في ١٨٨٢ فى مقالته الرائعة يقول "ماهى الأمة" هى روح و مبدأ روحانى و أضاف قائلا.

هناك شيئان هما في الحقيقة واحد يصنعان هذا الروح أو المبدا الروحانى. أحدهما يكمن فى الماضى، و ثانيهما في الحاضر الأول يوجد فى التراث الغنى للذكريات، و الثانى هو الموافقة الواقعية و الرغبة في العيش معاو الإرادة لإنشاء معظم التراث المشترك إن الأمة مثل الفرد ثمـرة لماض طـويل للعمل الشاق أو التضحيـة و الإخلاص. أن الماضى البطولى و الرجال العظام و المجد و أعنى المجد الحقيقى ـ يجب أن تكون هذه الأشياء ثروة لنا عندما نقوم بإنشاء فكرة قومية و إن وجود أمة هو إستفتاء يومى

٥ ـ فى ان دتاوبى إى كليجورن، مسلم محب للوطنية، و سياسة هندية نيودلهى ١٩٧٤ ص ٦٥ـ

٦ ـ جون إستيوارت ميل النفعية التحررية، الحكومة الممثلة. لندن. ١٩٥٧ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ـ

٧ ـ الأسكندرفى ـ ريا سانوفسكى و برنيس رزنيك، التعميم في الكتابة التاريخية، مطبعة جامعة بنسلفانيا ـ ١٩٦٣ أنظر دافيد ـ ام ـ بوتير ـ إستعمال المؤرخين للقومية وبالعكس ـ ص ١٣٦ ـ

٨ ـ تحدى التعليم. منظور السياسة، وزارة التعليم نيودلهى ١٩٨٥ ص ٤٧ـ

٩ ـ النزعة الإقليمية الفرعية في الهند. تنمية التوترات في الهند ص ٩ـ

١٠ ـ إيه. ان. فيديا لانكار التكامل القومى و تدريس التاريخ ص ٣ ـ

١١ـ لاجبت رأى، كتابات السير الذاتية ص ٢٧ ـ

nidaulhind.blogspot.in